د. محمد الحوادي

الشمعة الأمريكية

في نهضة الشام الثقافية الحديثة

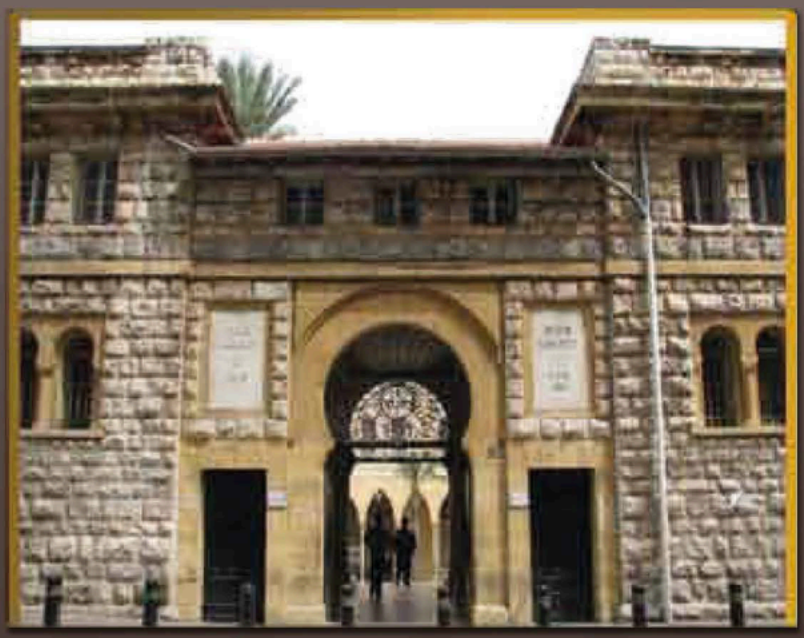

أحمد فارس الشدياق • فان ديك • بطرس البستاني • لويس صابونجي
سليم شحادة • سليم البستاني • شاكر شقير • يعقوب صروف
سليمان البستاني • فارس نمر • جورجي زيدان

دار الروضة

الشمعة الأمريكية
في نهضة الشام الثقافية

د. محمد الجوادى

الشمعة الأمريكية في نهضة الشام الثقافية

دار الروضة
للطباعة والنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
1441 هـ - 2020 م

ISPN - ردمك
978-625-7895-79-8
Alşamaa Alamrıkıya fi nahdıt akşam

دار الروضة
للطباعة والنشر والتوزيع

للطباعة والنشر والتوزيع

إهداء

إلى الصديق الكريم
الدكتور أكرم أبو النجا

المحتويات

إهداء ٥

هذا الكتاب ٩

الباب الأول: رموز الريادة الوعرة ١٥

الفصل الأول: أحمد فارس الشدياق ١٨٠٤ – ١٨٨٧ ..... ١٦

الفصل الثانى: فان ديك ١٨١٨ – ١٨٩٥ ..... ٢٨

الفصل الثالث: بطرس البستانى (الكبير) ١٨١٩ـ١٨٨٣ ..... ٣٤

الفصل الرابع: قراءة فى مقدمة البستاني لدائرة المعارف العربية ٣٩

الفصل الخامس: لويس صابونجي ١٨٣٨ ـ ١٩٣١ ..... ٥٤

الباب الثاني: رموز الريادة المستقرة ٦٥

الفصل السادس: سليم شحادة ١٨٤٨ – ١٩٠٧ ..... ٦٦

الفصل السابع: سليم البستاني ١٨٤٨ – ١٨٨٤ ..... ٧٠

الفصل الثامن: شاكر شقير ١٨٥٠ – ١٨٩٦ ..... ٧٢

الباب الثالث: حُصّاد المجد ٨١

الفصل التاسع: الكلية الأمريكية فى بيروت ٨٢

الفصل العاشر: يعقوب صروف ١٨٥٢ – ١٩٢٧ ..... ٨٤

الفصل الحادى عشر: سليمان البستاني ١٨٥٦ – ١٩٢٥ ..... ٩١

الفصل الثانى عشر: عن فارس نمر ١٨٥٦ – ١٩٥١ ..... ٩٨

الفصل الثالث عشر: جورجي زيدان ١٨٦١ – ١٩١٤ ..... ١٠٥

هذا الكتاب

(١)

هذا الكتاب هو واحد من مجموعة كتب أردت بها أن أصور عوامل الصعود والتأثير في النهضة العربية الحديثة وعوامل القصور والارتداد في هذه النهضة، وتنطلق فكرتى فى هذا الكتاب الذي بين أيدينا من حقيقة أن الأمريكيين أرادوا التأثير في الثقافة العربية في بلاد الشام تأثيرًا مباشرًا لكنهم قدموا رجلًا وأخروا رجلًا فكانت النتيجة أن وجودهم لم يتعد الومضة التي بقيت عابرة دون أن تضع بصمتها على هذه الثقافة بما يتناسب مع الوجود السياسي الأمريكي الفاعل منذ ذلك الحين، وفيما يبدو بكل وضوح فإن عوامل الثقافة الأصيلة والذاتية كانت مشتعلة الأوار في بلاد الشام جميعًا ومنها بيروت التي استهدفتها الجهود الأمريكية دون أن تجد لنشاطها صدى يمكن أن يفرض نفسه على نحو يحتفظ بالأصالة الأمريكية إن صح أن هناك أصالة أمريكية فى ثقافة القرن التاسع عشر.

(٢)

لم أشأ أن أشغل القارئ بتاريخ الإرساليات وبجهود الإرساليات ولا بنشاط المرسلين أو حياتهم في بلاد الشام وإنما اكتفيت من هذا النشاط الممتد بأبرز ما فيه من مؤسسات تعليمية وهى الكلية السورية فى بيروت (أو المدرسة السورية الكلية أو المدرسة السورية البروتسانية) التى تأسست منذ البداية كمشروع لجامعة والتى تحولت بالفعل إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت فى ١٩٢٠. كانت هذه المدرسة أو الكلية أو الجامعة صورة معبرة عن التعليم الأمريكى وميادين اهتمامه، وكان حريًا بها أن تؤثر فى بيئة متميزة منذ قديم الزمان وهى بنية الشام، لكن انشغال الأمريكيين بحسابات الاقتصاد والربح والخسارة والوقف والهبة جعل المؤسسة تنشغل بكيانها عن وجدانها، وبمبناها عن معناها، وبقانونها عن أثرها، وبهدفها عن رسالتها، وهكذا تحولت إلى مؤسسة ذات هدف بدلًا من أن تكون كيانًا ذا رسالة.

وهكذا انحصر الوجود اللامع لهذه المؤسسة العظيمة فى مجموعة محدودة العدد من تلاميذها الأوائل لعل أبرزهم هو رائد الثقافة العلمية يعقوب صنوع، ثم عاشت تلك المؤسسة التعليمية على الروتين الجامعى الذى يستقبل طلابًا ويخرج موظفين، وفيما بين هذا وذاك فإنه يطلعهم على طابع الأمريكيين فى التعامل مع الدين والقيم والأخلاق والتراث، وعلى طبيعة الأمريكيين المراوغة فى قضايا العنصرية والجنس والإرهاب والحرب، وعلى إمكانات الأمريكيين الهائلة فى الحركة والتنقل والسلاح والتجارة، فمن شاء أن يتخلق بها فهو أهل للربح، ومن لم يشأ فليرجع إلى قيم منطقته الأصلية.

(٣)

لم تبعث هذه المؤسسة (والمؤسسات الشبيهة بها التى أسسها أعضاء الإرساليات الأمريكية من قبلها) روحًا جديدة فى الشام حتى وإن كانت قد أتاحت طباعة بعض الكتب وصورت هذه الطباعة إنجازًا تاريخيًا، وصحيح أنها عمدت إلى الكتاب المقدس فترجمته، واعتبرت أن هذه الترجمة التى قام بها نجم من النجوم الذين نتحدث عنهم فى كتابنا هذا (هو بطرس البستانى ومشاركوه) هى الترجمة البروتسانية المعتمدة لكتاب المقدس، وطبعت طبعته الأولى فى خمسين ألف نسخة، لكن هذا كله يوصف بأنه تاريخ بأكثر منه نهضة.

على أن الأهم من هذا هو روح الموسوعية المقننة التى وجدها الشوام عند الأمريكيين فاحتذوها واقتدوا بها فى تآليفهم التى تناولت موضوعات تقليدية، وهكذا نرى جهود أحمد فارس الشدياق الرائد الأول والأعظم الذى نظر إلى اللغة ومتنها وترتيبها نظرة جديدة كان لها أثر كبير فى كل الدراسات اللغوية التالية، ونرى بطرس البستانى وهو يطبع محيط المحيط قاموسًا ضخمًا ويلخصه فى قطر المحيط، ونرى سليم البستانى وهو يؤسس للفن القصصى مترددًا أو مندفعًا، ونرى لويس صابونجى وهو يرتاد آفاقًا متعددة ثم نرى سليمان البستانى وهو يقدم ترجمته ذائعة الصيت للإلياذة، ونرى يعقوب صروف وفارس نمر وهما يقدمان ثقافة العلم وثقافة العصر، ثم نرى جورجى زيدان وهو يعيد تقديم تاريخ الأدب العربى على نحو جديد يتناسب مع تقديمه للتاريخ الإسلامى على نحو قصصى. وفى خضم هذا كله تأتى جهود سليم شحادة فى الصحافة والقص وجهود شاكر شقير فى الشعر والأدب.

وليس هؤلاء العشرة إلا رموزًا اخترناها لتعبر عن حال وعن حالة، وعن ثقافة وعن تأثر، وعن إبداع وعن تقدم، وعن محاولات جادة وتطورات حادة.

(٤)

يتناول هذا الكتاب جهود وإسهامات عشرة من الشوام المحدثين الذين ولدوا جميعًا في بلاد الشام فى القرن الثامن عشر الميلادى وأتاح لهم نشاطهم أن ينتقلوا إلى القاهرة أو أن يستقروا فيها أو يزوروها وأن تلمع أسماؤهم فيها، وأن يتركوا أثرهم فى أدبياتها مع التعاون فى هذا الأثر، يجمعهم جميعًا اتصالهم بالغربيين عامة وبالأمريكيين خاصة، وعنايتهم باللغات الأجنبية (والإنجليزية خاصة) والنقل عنها والإفادة من مكتبتها، وقد توالت تاريخ ميلادهم:

الشدياق (١٨٠٤)، بطرس البستانى (١٨١٩)، وسليم صابونجى (١٨٣٨) وسليم شحادة (١٨٤٨) وسليم البستانى (١٨٤٨) وشاكر شفير (١٨٥٠) ويعقوب صروف (١٨٥٢) وسليمان البستانى (١٨٥٦) وفارس نمر (١٨٥٦) وجورجي زيدان (١٨٦١) ولم يكن لهم ما يجمعهم أو يقربهم من التزام بمتوسط الأعمار

فقد توفى بطرس البستانى (١٨٨٣) وابنه سليم فى العام الثانى (١٨٨٤) والشدياق فى (١٨٨٧) وشاكر شقير (١٨٩٦) ثم توفى الستة الباقون فى القرن التاسع عشر تباعًا: سليم شحادة (١٩٠٧) وجورجى زيدان (١٩١٤) وسليمان البستانى (١٩٢٥) ويعقوب صروف (١٩٢٧) وصابونجى (١٩٣١) وكان فارس نمر آخرهم رحيلًا (١٩٥١).

تفاوتت أعمارهم فرحل سليم البستانى فى السادسة والثلاثين من عمره (٣٦) وشاكر شقير (٤٦) وجورجى زيدان (٥٣) وسليم شحادة (٥٩) وبطرس البستانى (٦٤) وسليمان البستانى (٦٩) ويقعوب صروف (٧٥) على حين عاش الشدياق (٨٣) وصابونجى (٩٣) وفارس نمر (٩٥ عامًا).

(٥)

بقى لكل من هؤلاء أثر ربما يعيش فترة طويلة أخرى فى أدبنا العربى: دراسات الشدياق اللغوية والنقدية، وترجمة سليمان البستانى للإلياذة، كما بقيت آثار الريادة التى استحث ما هو أفضل منها كما هو الحال فى ريادة بطرس البستانى للموسوعة، وريادة سليم البستانى وسليم

شحاته للقص وريادة صابونجى للرحلات والتكنولوجيا، وريادة جورجى زيدان لتاريخ الأدب والقص الإسلامى.

وبقيت آثار الاتقان فى تناول الحقائق العلمية وتأصيلها تشهد بتفوق خاص وساحق ليعقوب صروف ومعه فارس نمر وإن كانت آثار هذا التفوق تتضاءل مع الزمن شأن العلم الذى لا يعنى إلا بالجديد.

وعلى وجه العموم فإن التراث الأدبى الأصيل يزداد قيمة مع الزمن والتراث العلمى الأصيل يزداد قيمة إذا كان حديثًا بلا زمن، وفى الحالين فإن حقوق الريادة والتجديد محفوظة لما هو غير هذا وذاك.

(٦)

لا يستقيم النظر إلى هذا الكتاب بدون النظر إلى نظيره الذى سبقه إلى الصدور منذ أسابيع «الأزهر باعثًا للشرارة» فبقراءة هذا وذاك نرى أن العلم نبات أصيل يحب بيئته ويتخصب فيها، كما ترى أن المؤسسة التى تطلق لوجه الله تؤتى ثمارًا لا تؤتيها المؤسسات التى تصف نفسها بأنها لاتستهدف الربح فحسب، كما نرى أن المؤسسة التى تنطلق من رحاب مؤسسة متكاملة كفيلة بما لا يمكن للصوبات أو المحميات أن تقدمه.

إذا أردت أن أصنف هذا الكتاب بصدق فإن أستطيع أن أقول إنه ليس كتابًا فى التاريخ ولا فى تاريخ العلم ولا فى الثقافة ولا فى تاريخها ولكنه فى حقيقة الأمر كتاب فى تجليات الوطنية وتاريخ حب الناس للعلم والوطنية معًا.

ولهذا فإنى قد خصصت فى هذا الكتاب فصلًا لترجمة موجزة عن المستشرق فان ديك وجعلت ترتيب هذا الفصل فى ترتيب السياق العام للأعلام حسب مولده، ثم خصصت فصلًا مختصرًا للحديث عن تاريخ الكلية السورية جعلته فى ترتيب الكتاب العام قبل الفصل الذى يتحدث عن أول خريجيها أى قبل الفصل الخاص بيعقوب صروف.

(٧)

كان هذا الكتاب قد أعد فى أضعاف هذا الحجم الذى يصدر فيه اليوم، لولا ما ابتلانى الله به من التشرد والغربة والاستيحاش وهكذا استنقذت بمشقة بعض أصوله القديمة وقدمتها بجهد جهيد على هذا النحو الذى آمل به أن تحتفظ معه الفكرة برونقها، وبأثرها.

ومع هذا فإنى متألم لهذا الذى أصابنى وأصاب مخطوطاتى وعملي، أرجو الله أن يزيح الغمة وأن يريح الأمة وأن ينصرنا على الظلمة.

أرجو الله سبحانه وتعالي أن يهديني سواء السبيل، وأن يرزقني العفاف والغني، والبر والتقي، والفضل والهدي، والسعد والرضا، وأن يجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاه، وأن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حييت، وأن يذهب عني ما أشكو..

والله سبحانه وتعالي أسأل أن يذهب عني ما أشكو من ألم ووصب وقلق، وأن يحسن ختامي، وأن يجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاه.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حييت، وأن يحفظ علي عقلي وذاكرتي، وأن يجعل كل ذلك الوارث مني.

والله سبحانه وتعالي أسأل أن يهديني سواء السبيل، وأن يرزقني العفاف والغني، والبر والتقي، والفضل و الهدي، والسعد والرضا، وأن ينعم علي بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعينني علي نفسي، وأن يكفيني شرها، وشر الناس، وأن يوفقني لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعني بما علمني، وأن يعلمني ما ينفعني، وأن يمكنني من القيام بحق شكره وحمده وعبادته، فهو وحده الذي منحني العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول، وهو جلّ جلاله الذي هداني، ووفقني، وأكرمني، ونعّمني، وحبب فيه خلقه، وهو وحده القادر علي أن يتجاوز عن سيئاتي وهي ـ بالطبع وبالتأكيد ـ كثيرة ومتواترة ومتنامية، فله سبحانه وتعالي ـ وحده ـ الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل.

د. محمد الجوادي

الباب الأول

الريادة الوعرة

الفصل الأول

أحمد فارس الشدياق

١٨٠٤ - ١٨٨٧

(١)

إذا قيل إن رفاعة الذى ولد قبل أحمد فارس الشدياق بثلاث سنوات كان موسوعيا هادئا مؤسسا فإن أحمد فارس الشدياق موسوعى مقتحم مغامر

كان لأحمد فارس الشدياق جهد رائد وغير مسبوق فى الارتقاء بالصحافة العربية وتوسيع نفوذها ومجالها وآدابها وفنونها، وكان له أيضا جهد رائع غير مسبوق فى التعريب والدراسات اللغوية، كما كان من دعاة العربية والإصلاح اللغوى، وهو رائد لغوى فى وضع المصطلحات العربية الحديثة، وفى فن المعجم العربى. وكانت له آراء بارزة فى الإصلاح الاجتماعى، وتحرير المرأة.

وهو أحد الرواد البارزين فى فن المقالة، كما أنه شاعر، وإن كان النقاد يرون أن أفضل وصف له أنه شاعر مقلد على حين أنه ناثر مجدد، ويرى كثيرون أن ترجمته للتوراة هى أدق الترجمات المتاحة. ومن الطريف أنه ولد مسيحيا وأسلم وهكذا كانت له علاقة بالأديان الثلاثة .

عرف الشدياق بسعة الاطلاع على العلوم المختلفة والفكر الإنسانى فى فنون شتى، وظهر هذا بوضوح شديد فى مقالاته وما تناولته هذه المقالات على نحو ما سنورده، ومع أن بعض هذه القضايا المختلفة كانت تستلزم العمق والترسخ فيها. فقد كان يستخدم أسلوبه الأدبى فى إنشاء المقالة بما يجعلها سهلة القبول.

(٢)

ولد أحمد فارس الشدياق فى عشقوت (١٨٠٤) لأسرة مارونية عريقة شاركت فى الحكم فى بعض الأجيال وتعرضت لاستبداد الأمراء الشهابيين، وانتقلت أسرته إلى بيروت فتعلم فى مدرسة مارونية، وظهر ميله إلى التراث العربى وإلى نظم الشعر، وقد توفى والده وهو صغير واضطر إلى العمل بنسخ الكتب، وزاد هذا فى إطلاعه على التراث.

كان أبواه قد سمياه فارس، وأبوه يوسف بن منصور بن الشدياق، ولما أشهر إسلامه توصل لحل جميل فسمى نفسه أحمد فارس الشدياق.

ودفعته الظروف السياسية إلى التنقل من مكان إلى آخر حتى جاء القاهرة وشارك فى تحرير الوقائع المصرية.

(٣)

انتقل أحمد فارس الشدياق إلى مالطة (١٨٣٤) حيث عمل مع المبشرين الأمريكيين فى إدارة مطبعتهم وتصحيح مطبوعاتهم، وظل فى مالطة ١٤ عاما يعمل بالتأليف والنشر حتى إن جرجى زيدان يؤرخ لنشاطه وأثره فى هذه الفترة فيقول: «إنه لا يكاد يوجد كتاب مطبوع فى مطبعة مالطة إلا كان هو مؤلفه أو مترجمه أو مصححه».

وانتقل أحمد فارس الشدياق بعد هذا إلى لندن لمساعدة جمعية الكتب المقدسة فى ترجمة التوراة إلى العربية.

ثم انتقل بعد هذا إلى باريس وفيها تعرف على أحمد باشا (باى تونس: أى حاكمها) الذى استقدمه من باريس إلى تونس حيث أقام وأصدر جريدة «الرائد التونسي».

وفى أثناء إقامته فى فرنسا أعلن إسلامه، واتصلت أواصر الود بينه وبين أقطاب الخلافة العثمانية، ونظم قصيدة فى مدح السلطان العثمانى عبد المجيد، ودعاه السلطان إلى الإقامة فى الآستانة وألحقه بديوان الترجمة كما تولى الإشراف على التصحيح فى دار الطباعة.

(٤)

وفى الآستانة أنشأ الشدياق جريدة «الجوائب» الشهيرة (١٨٦٠) التى نالت أكثر من دعم مالى حيث جمعت بين دعم كل من السلطان عبد المجيد والخديو إسماعيل وباى تونس، وظل يطبع جريدة «الجوائب» فى المطبعة السلطانية عشرسنوات، ثم أسس مطبعة خاصة بها، وقد كان لمطبعته هذه أثر كبير فى نشر الثقافة وإحياء التراث العربى المخطوط، وكانت جريدته ومطبوعاته واسعة الانتشار فى تركيا ومصر والشام وتونس والجزائر والمغرب وزنجبار وجاوا والهند.. إلخ، وقد احتفى السلطان عبد العزيز بجريدة «الجوائب» هذه، وبخاصة أنها ساعدت فى التعريف بفكرة الخلافة الإسلامية بين المسلمين المنتشرين خارج دولة الخلافة.

أما «كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب» فهو كتاب يشمل على مختارات مما أنشأه أحمد فارس الشدياق فى الجوائب جمعه ابنه سليم بعد أن توفى والده، وفيه تتمثل آراؤه الأدبية ومعارفه المتنوعة الكثيرة.

تشتمل الأجزاء السبعة على مواد صحفية متفرقة ومتباينة، ويختلف كل جزء عن الأجزاء الأخرى من حيث المضمون، حتى إن سليم فارس الشدياق يقول فى مقدمة الكتاب: «فلا يكون لأحد هذه الأجزاء تعلق بالآخر».

طبعت هذه الأجزاء فى مطبعة الجوائب التى أسسها الشدياق على فترات متقاربة على النحو التالي:

- الجزء الأول: المقالات الأدبية واللغوية والعلمية والاجتماعية، طبع سنة ١٢٨٨هجرية.
- الجزء الثاني: يشتمل على تفصيل ذكر الحرب التى وقعت فى سنة ١٨٧٠ بين ألمانيا وفرنسا. وطبع هذا الجزء ١٢٨٩هجرية.
- الجزء الثالث: يحتوى على نبذة من ديوان أحمد فارس الشدياق مما نظمه فى استانبول، طبع سنة ١٢٩٣هجرية.
- الجزء الرابع: يشتمل على القصائد التى نظمها العلماء والأدباء فى مدح أحمد فارس الشدياق وجريدة الجوائب، طبع سنة ١٢٩٤هجرية.

■ الجزء الخامس: تاريخ والحوادث والحروب فى الولايات العثمانية والأوامر والفرامانات السلطانية والمعاهدات والمراسلات، طبع سنة ١٢٩٥هجرية.

■ الجزء السادس: الوقائع المتصلة بالعلاقة بين الدولة العثمانية والدول العظمى ونصوص الدستور العثمانى والمراسلات السياسية والفرامانات السلطانية وما يتعلق بالمسألة الشرقية، طبع سنة ١٢٩٥هجرية.

■ الجزء السابع والأخير طبع سنة ١٢٩٨هجرية. وهو امتداد زمنى للحديث عن الموضوعات التى تطرق إليها الجزء السادس.

(٥)

نال أحمد فارس الشدياق شهرة علمية فى معالجة القضايا اللغوية فى القرن التاسع عشر، ويعود اهتمامه باللغة وألفاظها ومعجمها إلى أيام طفولته كما صرَّح هو نفسه ذلك فى كتابه الساق على الساق: «كان للفارياق ارتياح غريزى من صغره لقراءة الكلام الفصيح، وإمعان النظر فيه، ولالتقاط الألفاظ الغريبة التى كان يجدها فى الكتب».

ظل الشدياق متعلقًا باللغة فى كل مناسبة، فبينما هو يكتب فى موضوع سياسى نراه يستطرد إلى اللغة، وبينما يكتب فى موضوع اجتماعى يستطرد إلى اللغة، كأن اللغة أصبحت عنده قضية رئيسية تشغل باله فى كل ميدان وزمان وكان تناوله على الدوام معبرًا عن الإبداع فى اللغة لأنه كان صاحب القضية.

وقد بنى أفكار كتابه الشهير «الساق على الساق» على مطلبين جوهريين هما تحرير اللغة وإصلاح أحوال المرأة، ويرى بعض النقاد أن كتابه هذا هو أول رواية عربية فى العصر الحديث.

وعرف منه أن كان يسرد آراءه اللغوية ويوضحها فى مقالات تحت عنوان «فائدة لغوية»؛ ويتطرق من خلالها إلى قضايا لغوية.

وهو يتحدث بحب وولع عن خصائص اللغة العربية:

«قد ذكرت فى إحدى الجوائب أن اللغة العربية أصل اللغة السريانية والعبرانية، وأوردت الدليل على ذلك من وجود علامات الإعراب فى العربية ثم قلت فمن لم يقتنع بهذا الدليل أرجعته إلى سر الليال والمراد بذلك أن هذا الكتاب موضوع لتبيين مشتقات الألفاظ ونسق

الأفعال بعضها ببعض لإيضاح معانيها، وبهذه الطريقة تندفع (أى تنتهى) دعوى مَنْ يدعى أن بعض هذه الألفاظ مأخوذة من اللغات الأعجمية، مثال ذلك لفظ الكنز زعم العلامة الخفاجى فى شفاء الغليل أنه معرب كنج، وقال الثعالبى فى فقه اللغة فصل فى ذكر أسماء قائمة فى لغة العرب والفرس على لفظ واحد، ثم ذكر منها الكنز فكأنه يزعم أن ذلك على سبيل التوافق فنقول فى الجواب بناء على ترتيب سر الليال أن كنه كناً وكنوناً بمعنى ستره ومثله جنه ثم كنبه فى جرابة كنزه، والكانب المتلئ شبعا، ثم كنت فى خلقه قوى ثم كنبث تقبض ثم كند النعمة كفرها وحقيقة معناها سترها، ومثله فى المأخذ غمط النعمة فإنه وارد من غم بمعنى ستر أيضا ثم كنز الشيء فى الوعاء خبأه ويقرب منه جنز ثم كنس ثم كنس الظبى دخل فى كناسه فلم ينقطع عن الستر، والكنيسة متعبد اليهود أو النصارى، وحقيقة معناها مكان يُستر فيه».

(٦)

ويعرض الشدياق مثالا آخر من هذا القبيل المنبئ عن طريقته فى التعامل مع متن اللغة، وفهمه له، وتعصبه للغته العربية، إذ يقول:

«فأنت ترى أن معنى الستر والجمع دائر فى جميع هذه الألفاظ فإذا ادعى فارسى أن كنز معرب كنج أو سريانى أن الكنيسة معرب كنشى بمعنى جماعة قلنا لهما بل أنتم قوم لثغ لم تحسنوا النطق بألفاظنا فبدلتموها وحرفتموها، وقس على ذلك ما إذا كانت اللفظة جامدة ولكن تقدمها ألفاظ مشتقة جات على وتيرة واحدة فإنا نحكم بموافقة معناها لها مثال ذلك لفظة الشمس فإنها تظهر فى أول الأمر أنها لفظة جامدة فإذا قابلتها بالشمس والشمخ والشمذ والشمر والشمز وغير ذلك مما يدل على الارتفاع حسيا كان أو معنويا حكمنا للشمس بهذا المعنى وبهذه الطريقة يبطل تمحل الذين يحاولون نسبة القصور إلى اللغة العربية فتراهم أبدا حائمين حول لغات الأعاجم ويقولون أن ألفاظ العرب مأخوذة منها من دون دليل ولا برهان وما ذلك إلا لحصول بعض المشابهة بين العربية وغيرها فكان الأولى لهم أن يقول فى الأقل: إن ذلك وقع على سبيل التوارد لا أن يجزموا بكونها معربة،

ثم يقول الشدياق: «نعم إنى لا أنكرأن يكون قد دخل فى لغة العرب بعض ألفاظ من لغة العجم وهى أسماء لأشياء لم تكن معروفة عند العرب كلفظة الاستبرق مثلا إلا أن ما كان بخلاف ذلك ينبغى أن يُحمل عليه فلا يصح أن يقال أن اللجام معرب لأن العرب عرفت الخيل وما

يلزم لها قبل جميع الأمم ومن هذا القبيل الكنز والخوان ونحوهما مما ذكر فى شفاء الغليل وكليات أبى البقاء، وبما مر من تناسق الألفاظ فى العربية تعلم أن هذه المزية مخصوصة بها».

(٧)

ويتحدث الشدياق باعتزاز عن خاصة الاشتقاق فى اللغة العربية فيقول:

«والمزية الثانية اشتقاق عدة ألفاظ من أصل واحد كقولك من كتب: كاتب وكتاب ومكتوب و«مكتب (بفتح الميم وكسرها) وكاتب واستكتب فهذه المزية لا توجد فى لغات العجم مطردة».

«وقس على هذا سائر المحاسن الغريزية التى اختصت بها هذه اللغة الأصلية دون جميع اللغات، ومع هذا فإن الناس هنا يرغبون عنها إلى اللغات المشوهة بالتلفيق والترقيع والتجديع والتقطيع».

(٨)

كان أحمد فارس الشدياق يحب اللغة العربية حبا جما وليس من قبيل المبالغة أن نقول إنه وصل في حبه للعربية إلى درجة غير معهودة من الشوفونية المفرطة، فهذه حقيقة. ولهذا كان يعمد إلى الحديث عن الأجانب ولغاتهم فيرمى هذه اللغات بكل نقص إذا ما قارنها بالعربية التى كان يراها أتم وأكمل، وأن فيها من الأساليب ما ليس عندهم، وأن فيها من الصيغ ما يعجزون عن الإتيان بمثله إلى غيرذلك من الأسباب التى كانت تدفعه إلى أن يلتمس الفخر للعربية ومن يتكلمون بها، وهو على سبيل المثال يقول:

«اعلم أن محاسن اللغة تنقسم إلى قسمين أحدهما يتعلق بطرق التعبير وحسن الأساليب عند ضم الكلام بعضه إلى بعض وذلك كأن تقول إنى ذهبت أمس إلى فلان لأسأله عن شيء فلم أجده إذ كان غائبا فلما حضر أخبر بزيارتى له فتأسفْ كثيرا فلم يلبث أن جاءنى ليعتذر لى غيابه فلم يجدنى، فزاد تأسفه، وتأسفت أنا أيضا لأن سؤالى إياه كان أمرا مهما فقصدت زيارتَه مرة أخرى فلم أجده، ثم زارنى أيضا ولم يجدنى، وهكذا مضى علينا عدة أسابيع ولم نجتمع»

«فهذا الأسلوب بيّن واضح حسن كل الحسن إذ ليس فيه تقديم ولا تأخير ولا تعقيد ولا خروج عما تقتضيه البساطة الطبيعية والتناسق الصناعى حتى إن المنصف ليعتقد بأنه لا يمكن تغييره ولا تبديله وأنه ينبغى أن يكون قدوة لجميع اللغات فكل لغة حادث عنه حكم عليها بأنها خالية من التناسق فهذا الحسن هو من خصوصيات اللغة العربية».

هكذا كان الشدياق يرفع مرتبة اللغة العربية بين اللغات إلى أعلى درجة، وهكذا كان يتطرق بشغف إلى الموضوعات اللغوية فى مقالاته عن الاشتقاق، والنحت، والترادف وما إلى ذلك من الخصائص اللغوية.

(٩)

أما نقد الشدياق الأدبى المتمثل فى المقالات التى جمعها ابنه سليم فى كنز الرغائب فقد شمل أعمالًا كثيرة متنوعة وكان ينتقد أساليب الكتاب والشعراء وتفكيرهم وآراءهم وتعبيرهم فكأنه أقام نفسه معلما أو مدعيا عاما فى محكمة الأدب حيث يقول:

«فليس كل من أورد من النوادر كان عالما، ولا كل من تمثل بالأبيات كان ناظما. فما العلم إلا ما استقر فى البال لا ما قرقر فى المقال وهذا الذى يفيد الطالبين ويؤدب المتأدبين...».

ويقول الشدياق فى موضع آخر:

«وإن كثيرا من الناس يتفصحون ويتحذلقون والناس بهم محدقون وإليهم محدقون ليتعمدون حفظ بعض القصص والحكايات لمجرد سردها على السامعين بينة على ما لهم من البيان والتبيين، والاطلاع على سير الأولين والاضطلاع من علوم المتقدمين فترى أحدهم ينتهز الفرصة لبث ما حفظه ووعاه ويزاحم غيره فى الكلام لإظهار دعواه».

(١٠)

كان أحمد فارس الشدياق يتحدث عن الأعمال الأدبية منحازًا إلى ما فيها من المهارات الفنية، ومركزا على قيام المخيلة بعملية تأليف الأفكار وترتيب الصور على نظام معين يعجب السامع والقارىء وكل مَنْ أراد أن يستمع بالفن ويتذوق الأدب وهو يقول عن التخيل:

«التخيل هو قوة حاصلة فى كل ذى إحساس وإدراك يستحضر بها الأشياء المحسوسة وهى متوقفة على القوة الذاكرة... ومن المهم أن يراعى أن هذه القوى التى بها نقبل التصورات ونضبطها ونؤلفها هى من جملة أشياء يفوتنا شرحها وتفصيلها فإن هذه الموارد الباطنية فينا ليست من نمونا استقلالا بل هى ممن أنماها فينا، ولقائل أن يقول إن المخيلة وحدها هى الآلة التى تمكننا من تأليف الأفكار حتى ما كان منها وراء الطبيعة».

(١١)

وكان الشدياق يرى أن المخيلة نوعان:

• أحدهما المخيلة العقيمة وهى عبارة عن ضبط انطباع الأشياء على وجه بسيط،

والثانى المخيلة المنتجة وهى عبارة عن ترتيب الصور المدركة والتأليف بينها على وجوه مختلفة.

وهكذا كان الشدياق يتناول دور الخيال فى الأعمال الأدبية .

وقد تطرق الشدياق إلى الذوق الذى لا بد منه فى الأعمال الأدبية، ذاكرًا أن الذوق فيها مثل الذوق فى الطعام:

«الذوق فى الكلام كالذوق فى الطعام: كل منهما منشؤه الألفة والعادة فمن قلة الذوق المعنوى أنه لم يوضع فى لغة من اللغات لفظة خاصة به وبضده وإنما يذكر أهل المعانى والبيان شيئا من آثارهما فيقولون مثلا هذه استعارة حسنة وهذا تشبيه بديع أو هذه استعارة مستهجنة وهذا تشبيه بعيد، ولا يقولون إن ذلك من الذوق وعدمه مع أنه هو مدار ذلك وليس لغيره مدخل فيه لأن الشاعر الذى يرتكب ما يخل من الذوق ربما كان أعلم أهل زمانه باللغة وبكلام العرب فإتيانه والحالة هذه بما يروق النقاد ناشىء من العلم والذوق، وإتيانه بغير ذلك من عدم الذوق لا من الجهل».

ينتبه الشدياق إلى القدرة على التمييز بين الأساليب المختلفة والوقوف على سهولة الألفاظ ومافيها من نقص أو من خلل أو اضطراب، وينشر الشدياق مقالا لهذا الغرض من فصول كتابه المسمى «منتهى العجب فى خصائص لغة العرب».

(١٢)

قسم مؤرخو الأدب المقالات التى كتبها الشدياق في صحيفته على مدي حياته وجمعها ابنه فى «كنز الرغائب» إلى ثلاثة أقسام حسب موضوعاتها.

القسم الأول: مقالات عامة، تناولت مواضيع متباينة مثل الموضوعات العلمية والتاريخية واللغوية. وتطوراتها فى العلم فى ذلك الوقت، وكان يريد أن يزود القراء بهذه التطورات العلمية من خلال جهد رائد فى الثقافة العلمية، وعلى سبيل المثال فقد كتب عن «قوة البخار واختراع الباخرة»، و«الغاز»، و«إبرة المغنطيس»، و«فى الحديد»، و«القمر»، و«البلون» كما نرى في هذا الإطار مقالات ذات لون تاريخى أو أدبى أو لغوى.

• القسم الثاني: هو ذلك الذى يتعلق بالتهذيب الخلقى والتربوى والعقلى متمثلًا فى المقالات التى أسماها الشدياق بـ «الجملة الأدبية»، عن الأخلاق و الفضائل التى يجب أن يتحلى الناس بها.

• القسم الثالث: هو ما أسماها الشدياق بـ «الجملة السياسية».

كانت هاتان «الجملتان» تتصفان بالعرض الواضح والمناقشة المنطقية للوصول إلى الغرض والنتيجة، كما كانت مادتها تدل على اطلاع واسع ومستمر على التيارات الفكرية والأدبية والمذاهب الاجتماعية والعلم بالأحداث العالمية وتطوراتها،

كان الشدياق يستعرض فى هذه المقالات آراءه ووجهة نظره، وأفكاره، وأدلته، وما يختلج فى نفسه، وبذلك ولد فى الأدب العربى ما يعرف بـ «المقالة» أو «أدب المقالة»،

وأخيرًا فقد كان الشدياق أول من كتب فى هذا الفن على هذا النحو، كما كان رائده الأول فى الأدب العربى، وكان يقول عن إنشاء المقالة «إنها كنظم الشعر».

(١٣)

لا ريب فى أن أحمد فارس الشدياق مع موسوعيته وتبحره كان من رواد النهضة الأدبية الحديثة.

ولو نظرنا إلى مجموعة مقالاته الساسية، والأدبية، واللغوية، والاجتماعية، والتاريخية فى كنز الرغائب وفى المؤلفات الأخرى التى صنفها لاكتشفنا بسهولة ما تميز به من سعة اطلاعه على العلوم المختلفة المتنوعة، وعلى ذخيرة الفكر الإنسانى.

والحق أن ثقافته كانت ذات ألوان متباينة ومتكاملة وأنه كان متابعا لما كان يتوالى أو يتعاقب على الإنسانية فى زمنه من التطورات، والاختراعات، والأحداث السياسية أيضًا.

(١٤)

بقيت مجموعة من الجوانب التى لا بد لنا أن نشير إليها فى عجالة:

كان أحمد فارس الشدياق مع كل هذا ذا نزعة وطنية واضحة، وكان موقفه من الغربيين نموذجا لموقف المفكرين الوطنيين القادرين على كشف حقائق الأطماع ووسائل تحقيق النفوذ والاستغلال، وقد أبلى بلاء حسنا فى تبصير مواطنيه بحقيقة الأطماع الغربية مستغلا فى هذا جريدته ومطبعته ونفوذه الفكرى والصحفى.

وكان الشدياق داعية إلى بعث المجد العربى والإسلامى كالأفغانى، وإلى الأخذ بالتمدن الغربى كمحمد عبده.

وكان الشدياق رائدًا متميزًا في أدب الرحلات سواء في ذلك الارتحال في المكان أو في الزمان، وكان هذا تعبيرًا عن ارتحاله الذكى في الفكر والأدب واللغة والمعرفة على وجه العموم.

(١٥)

حظى الشدياق وجهوده بكثير من التقدير :

- نشر العلامة الأستاذ محمد عبد الغني حسن كتابًا جميلًا عنه في سلسلة أعلام العرب، ولهذا الكتاب فضل كبير على هذا الفصل، وقد نال الأستاذ محمد عبد الغني حسن عن هذا الكتاب جائزة الدولة التشجيعية، وذلك قبل أن يختار عضوًا في مجمع اللغة العربية.
- قرر مجمع اللغة العربية في القاهرة موضوعا لإحدى مسابقاته السنوية «أحمد فارس الشدياق وأثره فى اللغة والأدب». فاز بها الدكتور أحمد مختار عمر الذي أصبح فيما بعد

عضوًا في مجمع اللغة العربية وقد قدر الدكتور أحمد مختار عمر جهد الشدياق فى دراسات ومقالات قيمة.

- نشر الدكتور محمد أحمد خلف الله عنه كتابا بعنوان «أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والعربية»
- كتب عنه الأديب اللبنانى فاروق عبود كتاب بعنوان «صقر لبنان»، وقد استحق هذا الوصف لأنه فى نظره شيد دولة عربية غربية.

(١٧)

من مؤلفات الشدياق فى علوم اللغة العربية:

- «الجاسوس على القاموس» وقد أظهر فيه قدرات لغوية عالية من خلال نقد القاموس المحيط وتصحيح بعض ما وقع فيه صاحبه من أخطاء،
- «اللفيف فى كل معنى طريف»،
- «سر الليالى فى القلب والأبدال»،
- و«غنية الطالب».

وفى أدب الرحلات:

- «الواسطة فى أحوال مالطة»،
- و«كشف المخبأ عن فنون أوروبا».

ومن مؤلفاته فى تبسيط قواعد اللغات الأوروبية:

- «الباكورة الشهية فى نحو اللغة الإنجليزية»،
- و«سند الراوى فى الصرف الفرنساوي».

ومن كتبه المخطوطة التى لم تنشر:

- «التقنيع فى علم البديع»،
- وديوان شعره الذى لم يطبع منه إلا نحو ربعه فى الجزء الثالث من كتاب كنز الرغائب.

المقالات

- نشر ابنه سليم كما ذكرنا من قبل مجموعة مقالاته «كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب»، فى سبعة مجلدات.

(١٨)

وقد ظلت جريدته «الجوانب» تصدر حتى ١٨٨٤ حيث أوقفها قبيل وفاته.

زار أحمد فارس الشدياق مصر فى نهاية حياته حيث حظى بأكبر قدر من التكريم والاحتفال به وبشخصه وجهوده، ثم عاد إلى الآستانة وأقام بها حتى توفى (١٨٨٧)، ونقل جثمانه إلى لبنان حيث دفن.

الفصل الثانى

كرنيليوس فان ديك
(١٨١٨ - ١٨٩٥)

• هذا هو المبشر الذى اجتهد فى أن يضئ شمعة فى بلاد الشام لكن الطابع الاستعمارى الجديد للولايات المتحدة الأمريكية سرعان ما سيطر على جهده، فبقى اسمه على النحو الذى بقىّ عليه، وبقيت شمعته بمثابة قبس أمريكى لم يؤثر على نحو ما هو متوقع.

• لُقب بـ«أستاذ سورية الكبير و«فيلسوف الشرق»

• وُلد في مدينة كيندرهوك في ولاية نيويورك بأميريكا في ١٣ أغسطس ١٨١٨، وكان الابن السابع والأخير، لأبوين يرجع أصلهما إلى هولندا.

• تميز كرنيليوس بالذكاء الحاد والعمل الجاد، فأتقن منذ صغره عدة لغات كاليونانية واللاتينية، بالإضافة إلى لغتيه الأصليتين الإنجليزية والهولندية.

• كان والده طبيباً وكان يملك في نيويورك صيدلية، فكان كرنيليوس يعاونه في أعماله، وقد عني بجمع أغلب النباتات التي تنمو في ضواحي ولايته، وقام بتجفيفها وحفظها وترتيبها ترتيباً علمياً حسب فصائلها وعائلاتها النباتية.

• عندما أعلن والده إفلاسه دعاه أحد جيرانه الاطباء للاستفادة من مكتبته الطبية، فأخذ يعلم نفسه في مكتبته. ومن خلال عصاميته العلمية، وقبل أن يتم عقده الثاني، وصل كرنيليوس من العلم إلى مكانة جيدة، أهلته لأن يلقي محاضرات علمية في الكيمياء.

• وبمرور الوقت، علمه والده أصول الطب بعد أن تأكد من امتلاكه لناصية علم الصيدلة نظرياً وعملياً.

• بدأ اسم كرنيليوس يذيع بين أهل بلدته كطبيب بدون شهادة، فاهتم بعض ذوي الفضل به وجمعوا له المال اللازم ليدخلوه مدرسة سبرنكفيلد ثم مدرسة جفرسن في فيلادلفيا حيث نال منها شهادة الطب مع لقب دكتور.

• انتوى كرنيليوس رد الجميل لكل من عاونه على إتمام دراسته، فسخر جهده ووقته لتطبيب المرضى من أهل قريته والقرى المجاورة، وأصبح اسمه لامعاً وتم اختياره من قبل مجمع المبشرين الأميريكان، ليكون مرسلاً وطبيباً لبلاد الشام، وكان عمره ٢١ سنة.

• سافر كرنيليوس من بوسطن بأمريكا على ظهر سفينة مع مجموعة من المبشرين الأميركان، ووصل إلى بيروت يوم ٢ إبريل١٨٤٠، ومكث أربعين يوماً في الحجر الصحي، حفظ خلالها بعض الكلمات والجمل العربية، وبعد خروجه، قضى في بيروت أياماً قليلة، ثم انتقل عن طريق حلب إلى القدس ومارس الطب هناك، وعالج عائلات المبشرين ، وتعلم مباديء اللغة العربية على يد ميخائيل عرمان، وظل بالقدس تسعة أشهر.

• ثم عاد مرة أخرى إلى بيروت حيث تعلم اللغة العربية على يد إلياس فواز البيروتي، وأبي بشارة طنوس الحداد الكفرشيمي، والعلامة بطرس البستاني، الذي أقام معه في غرفة واحدة سنوات طويلة.

• أتقن علوم اللغة وآدابها على يد الأستاذ الكبير ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الأسير. حتى أصبح حافظاً للأشعار والمفردات والمعاني والأمثال الفصيحة، ففاق كل أقرانه من الأجانب ممن تعلموا العربية. كما تعلم اللغتين العبرية والسريانية.

• كان يرتدي الملابس الشرقية علي الدوام ويتمسك بالعادات والتقاليد العربية الشرقية، كما كان يُدخن النارجيلة الشامية.

• تزوج كرنيليوس فان ديك عام ١٨٤٢ من جوليا ابنة قنصل إنجلترا في بيروت بطرس آبت.

• وبعد فترة قصيرة انتقل إلى قرية عبية فأنشأ بمساعدة صديقه بطرس البستاني مدرستها الشهيرة عام ١٨٤٣، وأصرّ على أن يكون التعليم فيها باللغة العربية. ولهذا قام بتأليف مجموعة

كبيرة من الكتب المدرسية باللغة العربية، وقام بنشرها وتدريسها لطلاب مدرسته. وظل يعمل في التدريس والتأليف لهذه المدرسة طوال أربع سنوات، وعندما اطمأن على استقرار التدريس باللغة العربية فيها، عهد بمدرسته الأولى إلى صديقه سمعان كهلون، لينتقل هو إلى مجال آخر هو ترجمة الإنجيل إلى العربية.

• في هذه الفترة كانت الإرسالية الأميريكيّة ببيروت قد قرّرت رسميّاً ترجمة الكتاب المقدّس إلى اللغة العربيّة، وعهدت بذلك إلى عالي سميث، فلما توفي قبل إتمام الترجمة، تمّ تكليف فان ديك بهذا المشروع.

• لاقى كرنيليوس فان ديك الصعوبات في هذه الترجمة، حيث كان يبحث عن أصول الألفاظ في لغاتها الأصلية، قبل ترجمتها إلى الألفاظ المقابلة لها في العربية، وكان يستعين في عمله بعلماء اللغة من النصارى والمسلمين العرب والأجانب.

• أتم الترجمة عام ١٨٦٤، فبعثه مجمع المبشرين إلى أميركا ليباشر طبعها، فظل في أميركا عامين حتى أتم المهمة. ومنذ ظهور ترجمة الإنجيل هذه بالعربية عام ١٨٦٦، أصبحت نسخه – التي طُبعت حينئذ في خمسين ألف نسخة هي المعتمدة في الكنائس الإنجيلية العربية.

• عمل بالتدريس في إحدى المدارس الأميريكية، وكان أسلوبه التدريسي سلساً. فعرض عليه القائمون على المدرسة البقاء فيها مقابل مرتب كبير! ولكنه اعتذر قائلاً: « لقد تركت قلبي في سورية، فلا لذة لي إلا بالعودة إليها».

• في هذه الفترة مرض فان ديك مرضاً شديداً أوشك أن يُودي بحياته، ولكنه شُفي منه وعاد إلى الشام، وعندما سأله إسكندر العازار عن مرضه في أميريكا، قال له: « لقد خشيت جداً أن أموت بعيداً عن سورية المحبوبة».

• بدأ كرنيليوس بمشاركة صديقه الدكتور يوحنا ورتبات تأسيس كلية الطب، فوضعا لها نظامها الإداري والدراسي، وقاما بالتدريس فيها، وعندما عجزت المدرسة عن استقدام أستاذ للكيمياء، قام كرنيليوس بتدريس المادة ست سنوات، بالإضافة إلى تدريسه مادة علم الأمراض، واشترى من ماله أدوات لمعمل الكيمياء، كما قام بتأليف كتاب «مباديء الكيمياء» كمقرر دراسي للطلاب، وطبعه على نفقته الخاصة، وأصبح هذا الكتاب، فيما بعد، من المراجع الأساسية.

• وفي هذه الفترة تعرضت الجامعة لأزمة مالية، عجزت بسببها عن استقدام أستاذ في علم الفلك ودفع راتبه، فقام كرنيليوس بتدريس المادة بدون أجر، وألّف فيها كتاباً مدرسياً وطبعه على نفقته الخاصة.

• فكر القائمون على الجامعة في بناء مرصد فلكي خاص بها، فاستشاروا فان ديك في الأمر، فحدد لهم رابية مرتفعة في الحرم الجامعي لبنائه. ولكن المشروع توقف بسبب عجز الجامعة عن شراء الأدوات اللازمة لهذا المرصد، فقام هو بشرائها من ماله الخاص، ومن هنا أُشتهر هذا المرصد باسم مرصد فان ديك لسنوات طويلة، رغم أن اسمه الرسمي كان المرصد السوري.

• ظل فان ديك يدير هذا المرصد ويحرر نشرته الأسبوعية، منذ نشأته وحتى عام ١٨٩٣. وكان المرصد مخصصاً لرصد وتسجيل الطقس والزمن وحركة الكواكب وهزات الزلازل وإرشاد السفن، وتبادل المعلومات مع المراصد العالمية في أوروبا وأميركا.

• ذكر جرجي زيدان في مذكراته، أنه تتلمذ على يد فان ديك عندما كان يدرس الطب في الجامعة الأميريكية ببيروت عام ١٨٨١، وأن فان ديك كان أشهر الأساتذة وأحبهم إلى قلوب الطلبة والأهالي، وذلك لبراعته في التدريس. وأنه بلغ من الشهرة والمكانة درجة، جعلت عامة المواطنين يعتقدون أنه صاحب الجامعة، فأطلقوا عليها جامعة فان ديك.

• في عام ١٨٨٢ قررت إدارة الجامعة في أميركا أن تكون اللغة الإنجليزية هي لغة التدريس، في الجامعة الأميريكية ببيروت، بدلاً من اللغة العربية فاعترض فان ديك ودافع عن اللغة العربية باعتبارها اللغة الأنسب في التعليم دفاعاً مستميتاً دون جدوى، فقدم استقالته قائلاً: «إنني ما نزلت أرض الشام إلا لأخدم العرب بتدريس العلوم بلغتهم». وهكذا خرج فان ديك من الجامعة الأميريكية التي شارك في تأسيسها دفاعاً عن اللغة العربية.

• لم تتوقف خدمات فان ديك لأهل الشام بخروجه من الجامعة بل تولى إدارة «المطبعة الأميريكية ببيروت»، وانتقى لها الكتب العربية المهمة والمفيدة.

• كان فان ديك ينشر المقالات الأدبية والعلمية في الكثير من المجلات، ولا سيما مجلة المقتطف وهو من اقترح اسمها على تلميذيه يعقوب صروف وفارس نمر، مؤسسي المجلة.

• عمل فان ديك طبيباً في المستشفى البروسياني، ومستشفى القديس جاورجيوس، ومستشفى ماري جرجس لطائفة الروم الأرتوذكس، التي بنى بها قاعة للمرضى من ماله الخاص عام ١٨٨٨.

• وافق عام ١٨٩٠ مرور خمسين سنة على قدوم فان ديك إلى بيروت، فأراد أهلها الاحتفال به، خصوصاً بعد أن منحه السلطان العثماني النيشان المجيدي من الدرجة الثالثة. فتشكلت لهذه المناسبة لجنة برئاسة إسبر شقير، والشيخ محمد عبده وجمعوا مبلغا كبيرا من المال، لشراء هدية تليق به، فاقترح عليهم والي بيروت إعطاء المال لفان ديك ليتصرف فيه كما يشاء، شريطة ألا ينفقه على أعمال الخير كما هي عادته.

• وفي يوم الاحتفال بمنزل فان ديك ألقى إسبر شقير خطبة، عن خدماته الجليلة لأهل الشام في التدريس وبناء المدارس وتأليف الكتب العربية وإنشاء وتأسيس صروح العلم والأدب وتطبيبه للمرضى.

• ردّ فان ديك عليه بخطبة، أهم ما جاء فيه قوله: « أشهد أمام الله والناس إني أقمت بين أهل الشرق بكل نية صافية، ولم أقصد غير نفع جيلي وترقيته وتخفيف الأثقال على قدر الاستطاعة، وهذا من فضل الله يؤتيه من يشاء»

• ظل فان ديك يمارس عمله وعلمه دون انقطاع، حتى أصيب بحمى التيفوئيد التي لازمته أياماً معدودة، فشعر بدنو أجله وامتنع عن الطعام،

• وأوصى أهل بيته، بأن يُدفن في صمت تام بأرض الشام، دون أن يؤبنه أحد ولا يرثيه شاعر، ولا يخطب على قبره خطيب، وأن تُتلى على جثمانه الصلوات في الكنيسة باللغة العربية.

• توفي يوم ١٣ نوفمبر ١٨٩٥ عن سبعة وسبعين عاما، فدفن حسب وصيته في صمت مطبق بالمقبرة الأميريكية ببيروت، بعد أن تُليت الصلاة على جثمانة باللغة العربية في الكنيسة الإنجيلية.

• أقاموا له تمثالا نصفيا ، في احتفال ضخم عام ١٨٩٩، في قاعة مستشفى ماري جرجس لطائفة الروم الأرتوذكس ببيروت التي كان فان ديك قد بناها على نفقته الخاصة.

• أما الجامعة الأمريكية، فخلدت ذكراه بعد وفاته بستة وثلاثين سنة، عام ١٩٣١، عندما أطلقت اسم فان ديك على أحد مبانيها.

إنشاءاته

- مستشفى القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس (مع أنه بروتستانتي)
- الجمعية السورية (وهي أول جمعية مدنية في بلاد الشام)
- جمعية شمس البر
- المجمع العلمي الشرقي
- المجامع الدينية الانجيلية

كتبه

- محيط الدائرة في العروض والقوافي ١٨٥٧،
- أصول الكيمياء ١٨٦٩،
- الأنساب ومساحة المثلثات ١٨٧٣،
- أصول التشخيص الطبيعي ١٨٧٤،
- أصول الهيئة في علم الفلك ١٨٧٤،
- الأصول الهندسية ١٨٧٥،
- الروضة الزهرية في الأصول الجبرية ١٨٧٧،
- أصول الباثولوجيا الداخلية ١٨٧٨،
- ترجمة كتاب تاريخ الإصلاح في القرن السادس عشر ١٨٧٨،
- ترجمة كتاب سر النجاح ١٨٨٠،
- السهم الطيار والفخ القرار لترقية الكروم من الثعالب الصغار ١٨٨٢،
- في أصول المنطق ١٨٨٦،
- إرواء الظماء في محاسن القبة الزرقاء ١٨٨٨،
- رواية بزوغ النور على ابن حور ١٨٩٦،
- المرآة الوضيَّة في الكرة الأرضية،
- النقش في الحجر، وهو ثمانية أجزاء في مباديء العلوم المدرسية.

الفصل الثالث

بطرس البستانى (الكبير)

١٨١٩ ـ ١٨٨٣

(١)

«البستاني» لقب لأسرة مارونية مشهورة أنجبت أعلامًا كثيرين أجادوا اللغة العربية وقدموا لها خدمات جليلة. ومن الطريف أن هناك أسرًا لبنانية أخرى حملت اللقب ذاته واشتهر من هذه الأسرة فى عصور تالية رجال متعلقون بالثقافة ومشتغلون بها.

عميد هذه الاسرة هو موضوع هذا الفصل والفصل التالى وهو بطرس بن بولس بن عبد الله البستانى.. وهو واحد من أهم الموسوعيين الأوائل الذين مهدوا بجهودهم الرائدة للنهضة العربية المعاصرة، ويتميز عن معظم هؤلاء (باستثناء أحمد تيمور) بأنه أصبح رأس أسرة استمر دورها النهضوى والتنويرى لأكثر من جيل.

لقب «أبو التّنوير العربيّ». وكان فى رأي بعض محبيه أوّل مَن نادى بتحرير المرأة وتعليمها فى المشرق العربيّ .

كما اشتغل بالصحافة مؤسسا لأربع صحف متتالية هي: «نفير سورية» و«الجنان» و«الجنة» و«الجنينة».

(٢)

ولد بطرس البستانى في ١ مايو عام ١٨١٩ فى قرية الدبية من مناطق الشوف اللبنانية، توفى والده وهو فى الخامسة من عمره. أُرسِلَ إلى مدرسة القرية، التى كانت واحدة من مدارس «تحت السنديانة»، فبدأت سمات الذّكاء تظهر عليه، فرعاه معلّمه الخورى «ميخائيل البستاني»

وأخبر المطران «عبدالله البستاني» عن نجابته وقوّة ذاكرته؛ فاهتم المطران به، وهيأ له الالتحاق بمدرسة عين ورقة، حيث أمضى فيها عشر سنين، تعلم خلالها قواعد اللغة العربية، والسريانية، والتاريخ، والجغرافيا، والحساب، وبعض النظريات اللاهوتية، والفلسفية، ومبادئ اللغة اللاتينية، وأصول الحق القانوني.

ثم انتقل للعمل فى بيروت فى عام١٨٤٠، فتعرّف إلى المبشرين الإنجليز، ثمّ إلى الأميركان، وعمل مترجماً فى القنصليّة الإنجليزيّة، وبعدها الأميركيّة، وتولى تعليم المبشرين اللّغة العربيّة.

(٣)

بعد نقله إلى بيروت لمساعدة المرسَل «عالى سميث» على ترجمة الكتاب المقدس، بدأ «بطرس البستاني» فى تعلّم العبريّة، والآراميّة، واليونانيّة القديمة. وأخذ يزداد فى معرفته السّريانيّة، واللاتينيّة حتّى أصبح متمكّناً من اللّغات الّتى كُتِبَت بـها أقدم نصوص الكتاب المقدّس. فضلاً عن إتقانه الإيطاليّة والفرنسيّة.

تعرّف بطرس البستاني إلى اثنين من المبشرين كان لهما أثر كبير في حياته بعد ذلك وهما الدّكتور «كرنيليوس فان ديك»، و«عالى سميث» عام ١٨٤١، انتُدِب «بطرس البستاني» مع زميله «الياس فوّاز»، إلى بلدة «حاصبيّا»، لتأسيس مدرسة هناك، فكانا يدرّسان فى المدرسة، ويعلّمان أبناء الكنيسة الإنجيليّة الصّلاة، والوصايا العشر. واستمرّ عمله فى «حاصبيّا» لمدّة سبعة أشهر حتّى أوّل أكتوبر عام ١٨٤٤. فانتقل إلى «عبية» مع صديقه «فان ديك» عام ١٨٤٦ بسبب إتقانهما اللّغة العربيّة الّتى أصبحت لغة التّدريس، فكانا يحاضران فى النّهار، ويؤلفان الكتب فى اللّيل. وقدمكث فيها سنتين.

ثم عين مترجمًا للقنصلية الأمريكية فى بيروت.

(٤)

توقّف «البستاني» عن ترجمة الكتاب المقدّس بعد وفاة «عالى سميث» عام ١٨٥٧، لأنّ العقد كان ينصّ على وجوب فسخه فى حال وفاة أحد الطّرفَين. و لم يكن قد طُبِع من أسفار الكتاب المقدّس سوى سفر التّكوين وتسعة وثلاثين إصحاحاً من سفر الخروج.

وفي حوالي عام ١٨٦٠ أنشأ جريدة «نفير سورية» وكانت أول جريدة وطنية.

أسس سنة ١٨٦٣م «المدرسة الوطنية» الشهيرة، فى زقاق البلاط، بيروت؛ وذلك لتعليم العربية والإنكليزية والفرنسية والتربية الوطنية.

كان لهذه المدرسة الوطنيّة أثر بالغ فى نهضة اللّغة والأدب العربيّين فى النّصف الثّانى من القرن التّاسع عشر، لكنها توقّفت سنة ١٨٧٧.

(٥)

أبرز انجازاته دائرة المعارف التى نتحدث عن تقديمه لها في الفصل التالي وقد عرفها هو بقوله «إنها قاموس عام لكل فن ومطلب». وقد صدر منها فى حياته ستة أجزاء، وصدر منها بعد وفاته خمسة أجزاء. وعمل فيها أبناؤه وبخاصة سليم ونسيبه سليمان خطار البستاني.

وقد أتم ابنه سليم الجزء السابع وأنجز الثامن كله، ثم تولى أبناؤه الآخرون إنجاز الأجزاء التاسع والعاشر والحادى عشر، وشرعوا فى الثانى عشر لكنهم لم يتموه.

أما الأثر المهم الثانى له فهو معجم «محيط المحيط» وكان فى وقته بمثابة قاموس عصرى فى اللغة العربية وقد صدر فى مجلدين كبيرين فى بيروت عام ١٨٧٠م وتقدم به إلى السلطان العثمانى، فنال عليه الوسام المجيدى الثالث وكان هذا المعجم من أوائل المعاجم الحديثة، رتبه على حروف المعجم باعتبار الحرف الأول من الثلاثى المجرد وجمع فيه كثيراً من مصطلحات العلوم والفنون العربية والمعّربة كما شرح أصول بعض الألفاظ الأجنبية كما ضمن المعجم الألفاظ العامية الحية، وقد اختصره بعد هذا فى قطر المحيط.

وقد قامت «مكتبة لبنان» بإعادة طبع المعجم بمجلديه و جددت طبعه سنة ١٩٧٧م فى مجلد واحد وصححت الأخطاء الطباعية وميزت المداخل الجذرية والرئيسية بلون مختلف.

أما عمله المهم الثالث فهو اشتراكه الذى سبق أن أشرنا إليه مع الدكتور عالى سمث والشيخ ناصيف اليازجى والدكتور كرنيليوس فان ديك والشيخ يوسف الأسير الأزهـــرى فى إنجاز ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية وقد تمت هذه الترجمة فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٦٤ وظهرت الطبعة الأولى للكتاب المقدس باللغة العربية فى ٢٩ مارس١٨٦٥، ويبدو أيضا أنه اشترك فى إنجاز فهرست الكتاب المقدس الذى ظهرت الطبعة الأولى منه فى عام ١٨٧٥.

(٦)

وبالإضافة إلى هذه الإنجازات نشر بطرس البستاني مؤلفات رائدة أهلته ليصنف عند محبيه كرائد للحركة الأدبية فى الشام، فقد ترجم كتباً مهمة:

- «سياحة المسيحيّ» لـِ «جون بنيان»،
- «تاريخ الإصلاح فى القرن السّادس عشر» لـِ «ميرِل دوبينييه»،
- «روبنسون كروزو» لـِ «دانيال ديفو»،
- «تاريخ نابليون الأوّل».

وألف كتاب «كشف الحجاب فى علم الحساب» طُبع عام ١٨٤٨، وكتاب «مسك الدفاتر».

لكن الأهم من هذين الكتابين هو عنايته بتأليف كتابه: كتاب نحو اللّغة العربيّة «بلوغ الإرب فى نحو العرب» لم يُطْبَع.

كذلك أنجز البستانى فى النحو كتابه «المصباح» وهو مجلد كبير، اختصره فى كتابه «مفتاح المصباح».

وبهذين الكتابين فى اللغة والنحو ارتاد بطرس البستانى مجالا جديدا من التأليف المدرسي الحديث فى علوم اللغة العربية، وكأنه أحس الحاجة إلى مثل هذا النوع من التأليف المبسط نتيجة تعامله مع غير العرب من أعضاء الإرساليات الذين كانوا عاجزين بالطبع عن الرجوع إلى متن اللغة العربية وقواعدها من خلال الكتب العربية القديمة، على أن هذا الأسلوب الذى بدأه بطرس البستانى سرعان ما راق للعرب أنفسهم بحكم العصر.

(٧)

عرف البستاني في مجتمع التبشير، وأسهم بفعالية فى نشاط الجمعيّة السّوريّة الّتى تأسست عام ١٨٤٧، فى بيروت، وكان من أنشط وأغزر محرّرى صحافتها، كما كان خطيبها المفوَّه.

وفى رحاب تلك الجمعية ألقى بطرس البستاني خطبه المشهورة حول «تعليم النساء» و«آداب العرب» و«الهيئة الاجتماعية».

كان حريصًا في تلك الحقبة على كتابة المقالات الأسبوعية التى كان ينشرها فى صحيفة المرسَلين «النشرة». وكان أمين سر اللجنة المشرفة على المدارس الّتى أنشأها الأميركان والإنجليز فى «عاليه»، و«المتن»، و«الشوير»، و«صيدا»، و«حاصبيا»، والّتى صارت تُعرَف باسم «المدارس اللبنانية».

(٨)

كان من الطبيعى بعد هذا كله أن يسعى بطرس البستاني مع أصدقائه لتأسيس كنيسة إنجيليّة وطنية خاصة ببلادهم تكون على علاقة بالإرساليات الأمريكية، فعقد فى شهر يونيو عام ١٨٤٧ اجتماعًا ترأّسه بنفسه، واتّخذ المجتمعون قراراً بإرسال طلب إلى المرسَلين الأميركان العاملين فى الدّيار الشّاميّة، يطلبون الموافقة على تأسيس كنيسة إنجيليّة وطنيّة، لها قوانينها وأنظمتها المستقلّة. ومُنحوا هذا الحقّ فى ربيع ١٨٤٨.

عمل بطرس البستاني كمعلّم فى مدرسة الأحد، ثمّ أصبح رئيساً لها لمدّة طويلة، إضافة إلى إلقائه العظات. ويذكر له أنه خطب فى حفلة تدشين البناء الجديد عام ١٨٦٧.

(٩)

أنشأ بطرس البستانى مجلّة «الجنان»، بأبوابـها العلميّة، والأدبيّة، والتّاريخيّة، والسّياسيّة، فى يناير عام ١٨٧٠، وكان شعارها «حبّ الوطن من الإيـمان»، وقد توقّفت عام ١٨٨٦.

وأنشأ فى ١١ يونيو ١٨٧٠ «الجنّة»، وهى مجلّة سياسيّة، تجاريّة،

وأنشأ «الجُنَينَة» فى ٣ فبراير عام ١٨٧١، توقّفت أيضاً بعد أربع سنوات بسبب وباء الهواء الأصفر فى بيروت.

وهكذا اكتمل إنشاؤه لأربع صحف إذا ما تذكرنا إنشاءه «نفيرسورية»

(١٠)

توفى بطرس البستاني فى مساء الأوّل من مايو عام ١٨٨٣،. وقد رثاه صديق صباه الدّكتور «فان ديك» بكلمة مؤثرة بدأها بقوله: «يا صديقى ورفيق صباي».

دُفِنَ بطرس البستاني فى مقبرة الكنيسة الإنجيليّة فى بيروت قرب طريق الشّام.

الفصل الرابع

قراءة فى مقدمة البستاني لدائرة المعارف العربية

(١)

يبدأ البستانى تقديمه لموسوعته بالتأكيد على أهمية المعرفة لجميع نواحى الحياة والتقدم، معددا هذه النواحى بطريقة ذكية على عادة أهل ذلك الزمان فى الحديث عن التعدد وصوره:

«إن احتياجات الأمم وأحوالها تختلف باختلاف الزمان والمكان ولابد لكل أمة من استنباط الوسائط الأدبية والمادية الموافقة لأحوالها واحتياجاتها. ولايخفى أن المعارف أساس لإتقان الزراعة والصناعة والتجارة وأم للاختراعات والاكتشافات وينبوع للثروة والقوة ومصدر للرفاهية والمحافظة على الصحة، وركن لانتظام أحوال الهيئة الاجتماعية وإدراك دقائق السياسة ومعرفة الشرائع والقوانين والنظامات وواسطة لتثقيف العقل وصحة الحكم وتهذيب الأخلاق وتحسين العادات والوقوف على التعاليم الدينية واكتشاف العلل والأسباب وإحكام الأعمال وضبطها».

(٢)

وينتقل البستانى مباشرة إلى الحديث عن دور الموسوعات فى الحضارة الغربية، والأسباب التى هيأت للفكرة الموسوعية أن تلعب هذا الدور فيقول:

«وليس من ينكر أن الأمم الشرقية قد شرعت فى توسيع خطاها فى سبل التمدن والارتقاء فى سلم المعارف المؤدية إلى ما هنالك وإن المؤلفات المعروفة عند الإفرنج بالانسكلوبيديات

هى من أسباب المنافع العمومية التى تبسط أمام المطالع كل علم ومعرفة وفن وصناعة وحكمة بل كل ما فى العالم من المطالب والمعارف المهمة بحيث يستغنى بها عن مئات من الكتب وتفتح الأبواب لجميع ما ذكر مع سهولة مراس وقرب مأخذ ».

(٣)

وسرعان ما يشير البستانى إلى ضرورة الموسوعة لأهل اللغة العربية، وأن إيمانه بهذه الضرورة هو ما دعاه إلى تأليف أو وضع هذه الموسوعة التى يقدم لها بهذه المقدمة:

«ولما كان لابد لأهل اللغة العربية من الحصول على ذلك لمناسبة أحوالهم وترقية أسباب التقدم والتمدن والثروة والرفاهية والعلوم والمعارف فى ربوعهم لكى ينخرطوا فى سلك من نهج هذا المنهج من معاصريهم ولاسيما بعد أن كثرت عندهم المؤلفات والجرائد ورأوا أنهم فى افتقار إلى تحسين كل عمل من أعمالهم لمجاورتهم البلدان المتمدنة وإنهم غير فائزين بأسباب قطع سبلها لإدراكها وصيانة أنفسهم بإتقان أعمالهم من آفة اقتباس عادات وأعمال ليسوا بقادرين على القيام بسد احتياجاتهم لافتقارهم إلى معارف هذا الزمان وأسباب إتقان زراعته وصناعته وتجارته وهلم جرا مما هو من أسباب النجاح والثروة خطر لنا أن نؤلف انسكلوبيديا عربية تقوم بسد هذه الاحتياجات المتعددة».

(٤)

ويتحدث البستانى عن الخطوات التى اتخذها فى سبيل تحقيق فكرته، وأن عقبة توفير التمويل سرعان ما واجهته، وأنه لهذا السبب بدأ يعرض فكرته على كبار رجال الدولة العثمانية وولاياتها من أجل الحصول على دعم للفكرة، فإذا المشجعون يقفون بتشجيعهم عند حدود التشجيع اللفظى والوعد بالتمويل بعد صدور العمل!!:

«فأخذنا نستشير أصحاب المعارف وأهل الذوق والغيرة من أبناء لغتنا الشريفة وغيرهم فى سورية وسائر البلدان فأشاروا بالقيام بهذا العمل. غير أن ما رأيناه من اتساع دائرته وما يلزمه

من المصاريف الباهظة وما يقتضيه من التدقيقات والتحقيقات والإدارة جعلنا نتردد فى أول الأمر عن إخراجه من القوة إلى الفعل خوفا من أن أثقاله المالية تحول دون بلوغ المرام فعرضنا هذا المشروع لبعض رجال دولتنا الفخام ومنهم حضرة صاحب الدولة والى سورية الأسبق وصاحب الدولة والأبهة المرحوم أسعد باشا الصدر الأعظم الأسبق فأظهرا من السرور والترغيب مالا مزيد عليه وقالا إن هذا العمل من الأعمال الخطيرة التى تحوز رضا دولتنا العلية أيدها الله تعالى ومساعداتها الأدبية والمادية وألح علينا المرحوم أسعد باشا بمداومة العمل وقال بعد أن رأى ما كان ناجزا منه أنه لايسمح إلا بإنجازه واعدًا بالمساعدة. على أن ذلك لم يأت بالمساعدة المالية نقدًا بسبب تأجيلها إلى ما بعد صدور المجلد الأول».

(٥)

وهكذا فقد كان من الطبيعى أن ينصرف البستانى عن انتظار هذا التشجيع المأمول من الدولة العثمانية إلى طلب الدعم الحقيقى من الحاكم المستنير الذى لم يبخل به عليه، وهو الخديو إسماعيل، ونحن نرى هذا الخديو المستنير (فيما يرويه سليمان البستاني) منتبها إلى حقيقة الإنجاز الفكرى، ومنتبها أيضا إلى أفضل صورة من صور الدعم التى يمكن تقديمها لإنجاز هذا العمل:

«ولما كنا قد عرفنا بالاختبار ما تلألأت به شموس الحضرة الخديوية الإسماعيلية من المآثر الشريفة والمفاخر المنيفة فى عضد المشروعات الأدبية وكل الأعمال التى تعود بالفائدة على الشعوب الشرقية ومساعدة أصحابها أدبيا وماديا وإن له أيادى كثيرة فى هذا الباب عرضنا الكيفية لحضرته العلية. فلما وقف على المثال وتفاصيل المشروع قال مواجهة ثم تبليغًا «إننا فى احتياج إلى هذا الكتاب ولانستغنى عنه فلا نسمح بالعدول عن تأليفه فإننا نعلم فوائده واحتياج الأمم إليه وهى فى ظروف أمتنا فهل يكفى اشتراك حكومتنا بألف نسخة منه فإذا لم يكف ذلك فقرروا فتنالوا ما يتكفل بخروج كتاب لكم اقتدار على تأليفه ولاغنى لنا عنه» فهذا كلام لايفتقر إلى تقريظ ولايحتاج إلى توضيح وهو برهان قاطع على ما عند تلك الذات العلية البديعة الصفات من الغيرة والحمية وحب نفع الناس وترقية أسباب العلوم والمعارف بين العموم».

«وهكذا رأينا أن البارى سبحانه وتعالى يجعل فى كل قرن ومكان سندًا وعضدًا للمشروعات الأدبية المهمة وييسر لها الإمدادات المالية عند الاحتياج إليها».

(٦)

ويمضى البستانى ليعترف فى صراحة شديدة بأن قرار الخديو إسماعيل بتمويل المشروع كان كفيلا ببدء الخطوات الجادة من أجل تنفيذه:

«وعند الفوز بالحصول على ذلك السند العظيم لم يبق باب للخوف من أن تكون مداخيل (أى عوائد) الكتاب دون احتياجاته وسببًا لنقص أسباب إتقانه وتوسيعه كما يقتضيه المقام من صرف الجهد العقلى والمالى فى سبيل البحث والتدقيق والجمع وتوسيع دائرة المكتبة وإدارة العمل».

(٧)

ويعود البستانى فيذكر أن عون الخديو إسماعيل لم يقف عند حد، وأنه زود المشروع بمكتبة نفيسة من الكتب التى كانت مصر قد نشرتها فى ذلك الحين:

«وقد جاد الجناب الخديو المعظم فضلاً عن الاشتراك بألف نسخة بمكتبة نفيسة من مطبوعات مصر لجمع الإفادات منها».

«فلساننا وقلمنا قاصران عن تأدية فريضة الشكر عن هذه المنة»

«على أن لسان حال هذا التأليف سيقوم بذلك فى كل عصر ومكان ويذكر أبناء اللغة على الدوام إن إتحافهم بكتاب هو ينبوع كل معرفة ناشئ عن تلك المساعدة. فنسأل الله تعالى أن يجزيه عنا وعن سائر أبناء لغتنا خيرًا».

«ثم بعد ذلك شمرنا عن المساعد العزم لطبع المجلد الأول منه»

«على أن دخول الوباء الديار السورية فى تلك السنة أى سنة ١٨٧٥ ميلادية أوقف دولاب الأعمال وحال دون مرامنا مدة ستة أشهر غير أن تلك المدة لم تنقض من دون فائدة للتأليف بل مكنتنا من زيادة عدد الكتب من عربية وإفرنجية جمعناها لنستعين بها على زيادة التحقيق والتدقيق والتوسيع فى التأليف وجعلت لنا وقتًا لتجهيز مواد مجلدات أخرى».

(٨)

ويتحدث البستانى عن جانب آخر من جوانب اقتصاديات مشروع الموسوعة، وهو سياسته فى فتح باب الاشتراك مقدما فى شراء الموسوعة للراغبين فى اقتنائها فيقول:

«وإذ كان يصعب اقتناء تأليف كبير كهذا إلا بالاشتراك ودفع المال تقسيطًا فتحنا له بابًا فكان إقبال الكثيرين عليه فضلاً عن المساعدة الخديوية مما زادنا نشاطًا فى العمل وثقة بتكليله بالنجاح وعلى الخصوص بعد أن سمعنا من الحضرة الخديوية العلية تلك العبارات البليغة المقوية للعزائم».

(٩)

ومع هذا يعود البستانى ليغازل الدولة العثمانية ورجالها الذين لم يقدموا له ما قدمه الخديو إسماعيل، لكنه مع هذا حريص على مراضاتهم وعلى إظهار الأمل فيهم وفى دولتهم التى يصفها بأنها ولية النعم:

«ومما يزيد همتنا همة وثقتنا ثقة ما نعلمه من ميل ولية نعمتنا الدولة العلية أيدها اللهّ تعالى ورجالها العظام إلى نشر المعارف والأخذ بيد من أخذ فى مشروعات كهذه إذ تتعطف بالمساعدت المادية والأدبية بعد صدور المجلدات، وما قد حصلنا عليه فعلاً من لدنها فى السابق يبشرنا بفوز هذا التأليف بسندها وعضدها».

(١٠)

ويشير البستانى إلى أن بعض الشخصيات المصرية كانت لها مساهمات مادية وأدبية أفادت الموسوعة، واعدا بأن يشير إلى هؤلاء فى أثناء حديث الموسوعة نفسها عن شخصياتهم والترجمة لهذه الشخصيات، وهو أسلوب يسهل وصفه بأنه يجمع بين الترغيب والترهيب خالطا هذا وذاك بحقائق الموسوعة:

«ولبعض الذوات الفخام فى الديار المصرية مساعدات مادية وأدبية لهذا التأليف سنذكرها إن شاء الله تعالى فى ترجماتهم افتخارًا بغيرتهم وحبهم للمعارف التى قدرها عظيم عند كل أمة عظيمة».

(١١)

ويتحدث البستانى عن مدى حرصه على الاستعانة ببعض الموسوعات العربية القديمة التى كان يعرف أنها سوف توفر له وللقارئ ما لا يتوفر فى المصادر الأجنبية التى ترجم عنها:

«وقد سمينا هذا التأليف ــ دائرة المعارف ــ فجاء اسما على مسمى وإذا قابله الواقفون عليه بعين الإنصاف وخلو الغرض بما هو من نظائره عند الإفرنج فى هذا الباب يسلمون بأنه ليس دونها باعتبار العموم وبأنه أفضل منها وأنفع كثيرًا بالنظر إلى الخصوص من العرب وبعض الافرنج فقد نقلنا عنهم أطايب ما عندهم مما تلذ لنا معرفته وتفيدنا مطالعته وأضفنا إلى ذلك أمورًا شتى قد خلت كتبهم منها فلهم علينا فضل الأسبقية».

« كما أن لياقوت الحموى وابن خلكان وأبى البقاء والدميرى وابن البيطار وكثيرين غيرهم من علماء العرب الأعلام فضلاً عليهم وعلينا فى هذا الباب».

«غنى عن البيان إن افتقار المتكلمين باللغة العربية إلى الكتب اللازمة فى كل فن ومطلب مما يزيد فضل هذا التأليف عندهم ولزومه لهم ومما يقوم لنا مقام عذر فى ذكر بعض ما ورد من المواد فى كتب القوم مما لايظهر له فى بادئ الأمر أهمية تجعله يستحق أن يعد فى مصاف المواد المهمة المدرجة فيه».

(١٢)

كان البستانى من الشجاعة الفكرية إلى حد الاعتراف بأنه واجه معضلة فى نشر كثير من المواد، ومنها المتعلقة بالخرافات اليونانية على سبيل المثال، لكنه أدرك أن هذه معرفة لا ينبغى له أن يحجبها عمن يطالعون الموسوعة من العرب، وعلى هذا فإنه يفخر من طرف خفى بأنه تمكن من تنقية الموسوعة مما يمكن اعتباره مخلا بالآداب العامة:

«وقد ذكرنا بعض ما كنا نحب أن لانذكره لعدم موافقته لذوقنا أو لأننا نحسبه مما لاصحة له من خرافات اليونانيين وغيرها، على أن اعتبار الكثيرين لذلك وميل الناس إلى الوقوف عليه وتوقف فهم أمور كثيرة على معرفته يمهد لنا العذر فى ذكره وذكر متعلقاته. وطالما حملنا ذلك على التمثل بقول الشاعر:

وقد يتزيا بالهوى غير أهله ويستصحب الإنسان من لا يلائمه

«على أننا قد تجنبنا كل ما هو من قبيل الخلاعة وما يمجه السمع أو يخل بالآداب حتى التزمنا فى بعض المواقع أن نهذب ما كان من هذا القبيل أو نحذفه مع الإشارة إليه».

(١٣)

ويشير البستانى إلى أنه كان من الفطنة بحيث تجنب المسائل الخلافية لاجئا إلى ما نسميه الآن الموضوعية أو الحيادية التى تضمن أن يتحقق الموسوعة الحد اللازم لكونها «كتابا عموميا» «على حد تعبيره:

«وقد جعلنا أساس هذا التأليف خلو الغرض من كل وجه والابتعاد عن التحزبات بحيث يكون كتابًا عموميا لكل الملل والمذاهب يستفيد منه من لا كتاب له كما يستفيد منه صاحب الكتاب».

(١٤)

كان البستانى من الذكاء أيضا بحيث انتبه إلى أهمية أن تكون مواد موسوعته مشجعة على الاطلاع عليها والقراءة فيها، وألا تقف وظيفتها عند حدود المهمة المرجعية فحسب، وهو لهذا يشير إلى بعض محتويات الموسوعة التى رآها كفيلة بتحقيق هذه الغاية:

«وإذ كنا نحب أن يكون «كتاب مطالعة» كما هو «كتاب مراجعة» قد أدرجنا فيه كل ما تصبو النفس إلى الوقوف عليه من أطايب أشعار العرب وترجمة بعض أشعار اليونان والسريان والإفرنج .... وما هناك من الحكم والأمثال».

(١٥)

ويتحدث البستانى عن الجهد الذى بذله فى التحقيق والضبط، وهو جهد جبار لكنه كان يعرف أو يدرك أن القراء يتصورونه ويقدرونه:

«ولا حاجة إلى ذكر ما قاسيناه من الصعوبة والتعب فى ضبطه ولاسيما من جهة الأشخاص والأماكن وعدد الأهالى والقياسات والاصطلاحات إلى غير ذلك وعلى الخصوص فى الممالك

الشرقية والبلدان التى لاتزال أحوالها الصحيحة مجهولة أو مشكوكا فيها على أننا لم نأل جهدًا فى التحقيق والضبط والتدقيق على قدر ما تقتضيه طبيعة الموضوعات ويحتمله المقام وقد عولنا فيه على الانسكلوبيديات الإفرنجية الحديثة وأشهر المؤلفات العربية والإفرنجية من تاريخية وجغرافية وصناعية وعملية ودينية وأدبية وسياسية وهلم جرا نقلا وتلخيصًا وترجمة مع زيادات وايضاحات وملاحظات اقتضاها المقام».

(١٦)

ويشير البستانى إلى بعض وسائله فى الحصول على المعلومات وتحقيقها إشارة تقليدية ودقيقة فى الوقت نفسه معترفا بمساعدة أصحاب المعرفة المرادة:

«وقد كتبنا إلى الجهات فوردت إلينا الفوائد المحققة عن مصادر يوثق بها ويركن إليها فى أمور كثيرة، وأما الأشياء التى لا واسطة لنا لنتحقق عليها (يقصد: منها) مشاهدة أو بالمكاتبة فقد اكتفينا فيها بالوقوف على كلام المؤلفين السالفين. وقد اعتمدنا على من يعتمد عليه من أصحاب المعارف داخل إدارة الدائرة وخارجها ممن لهم شهرة فى علوم وفنون مخصوصة للوقوف على المواد قبل طبعها. ولم يؤخرنا التعب والمصاعب وبذل الوقت والمال عن استخدام كل ما يلزم استخدامه لكى يكون هذا التأليف حائزًا من الإتقان والضبط والدقة والمحسنات ما يكسبه رضا العموم وثقتهم وارتياحهم إليه.

«على أننا مع ذلك لاندعى السلامة من العثار لأن الجواد قد يكبو والصارم قد ينبو والإنسان محل النسيان. فنرجو ممن وقف عليه أن يتصفحه بعين الرضا والقبول ويسبل ذيل العفو والمعذرة على ما يعثر عليه فيه من الخلل لأن الكمال لله وحده».

(١٧)

ومن العجيب أن البستانى لا يكف فى مقدمته للموسوعة عن العودة إلى مغازلة الدولة العثمانية متمثلة فى كبار رجالها وفى سلطانها، وهو ما يعطينا فكرة عن القوة التى تمتعت بها دولة الخلافة فى زمانها، وهو على سبيل المثال يختلق الفرصة لمدح السلطان مراد الخامس، مشيرا إلى أن طبع الجزء الأول قد وافق توليه الخلافة، وهو يردف قائلا:

«هذا وقد وافق الفراغ من طبع المجلد الأول خلافة من رقصت الأمة طربًا وحبورًا لجلوسه الهمايونى المأنوس المحفوف باليمن والإقبال عظمة مولانا الأعظم السلطان مراد بن ساكن الجنان السلطان عبدالمجيد خان وهو الخامس بهذا الاسم من سلالة سلاطيننا العظام آل عثمان المطوق بقلائد مفاخرهم جيد الزمان وطد اللهّ سرير سلطنته السنية ما كرّ الجديدان وغرد القمرى على الأغصان»:.

لدولة عثمان الهناء مجدد بتوطيد أركان العلا وعماده

سعود توالوا فى الخلافة فارتقت بسلم مجد لم يزل فى امتداده

إلى أن تولاها مراد فصفقت له طربًا واستبشرت بسداده

وماجت له الدنيا سرورًا وبهجة به واطمأن العصر بعد ارتعاده

به افتقد الله الخلافة منعمًا وما ذاك إلا رحمة لعباده

فقام بأعباء الرعية ساهرًا فقرت عيون الناس عند افتقاده

ونادى سريرا الملك بشرًا مؤرخًا زمانًا له وافى بخير مراده

والأبيات كما يشير البستانى فى الأخير منها منظومة تبعًا لحساب الجمل الذى يؤرخ للأحداث بطريقة حسابية تجعل من كل حرف مقابلًا لرقم فيتكون من مجموع الأرقام (المقابلة للحروف) رقم السنة التى وقع فيها الحدث.

(١٨)

ومن الطريف أن نطالع استعراض البستانى للمعارف الإنسانية مبوبة حسب التبويب المفضل عند المثقفين العرب فى ذلك الوقت، وهو تقسيم قريب إلى حد ما من تقسيم ديوى الذى تأخذ به المكتبات:

إن دائرة المعارف تتضمن بالإجمال

- أولا: العلوم الإلهية والفلسفية كعلم الكلام والفلسفة وفروعها.

- ثانيًا: العلوم المدنية والسياسية كالفقه والنظامات (أى النظم) المدنية والحقوق الطبيعية والقانونية والعمومية والتجارية والجنائية. والسياسة والتربية.
- ثالثًا: العلوم التاريخية كالجغرافية بفروعها وعلم التاريخ القديم والكنائسى والحديث وعلم الآثار والميثولوجيا اليونانية وغيرها من الخرافات القديمة.
- رابعًا: العلوم التعليمية كالحساب والجبر والهندسة وفروعها .
- خامسًا: العلوم الآلية والكيماوية كالفلسفة الطبيعية وعلم الهيئة أو الفلك والكيمياء وفروع ذلك.
- سادسًا: العلوم الطبيعية كعلم طبقات الأرض والمعادن والنبات والإنسان والحيوان والطب وفروعها.
- سابعًا: علم الأدب كعلم اللغة من الفصاحة والبيان والشعر والإنشاء والتاريخ الأدبى وما يتعلق بذلك.
- ثامنًا: الصنائع والفنون كالاكتشافات وفن البناء والتصوير والموسيقى والحراثة والزراعة والصيد واستخراج المعادن والمطابع واصطناع الآلات والتجارة والأوزان والقياسات والمسكوكات وهلم جرًا».

(١٩)

ويخرج البستانى من اطار التقسيم العشرى ليقدم للجماهير محتويات الموسوعة بطريقة الحياة التى يعيشونها أو فلنقل (مع الاعتذار للبستانى) بطريقة تجارية يبرر لها بانها لزيادة الايضاح على نحو مانرى فيما يلى :

- «ولزيادة الإيضاح نقول إنها تتكلم عن الكواكب السيارة والثابتة والبروج والمنازل وذوات الأذناب والشهب والعناصر وما يتعلق بها كالحرارة والبرودة. والحوادث الجوية كالشفق والبرق والرعد والمطر والصواعق. والمواليد الثالثة أى الحيوان والنبات والمعدن وما يتعلق بذلك والعقاقير وصفاتها ومنافعها ومضارها وما يتعلق بها.
- «ووصف طبقات الأرض وحوادثها كالزلازل والبراكين أى الجبال النارية».

- «ووصف الكرة الأرضية من تخطيط بلدانها ووصف طبائعها وتجارتها وعدد سكانها وتاريخها وحدودها وهوائها وتربتها ومزروعاتها وحيواناتها ونباتاتها ومعادنها ومعارفها وماليئها مدارسها ولغاتها».
- «ووصف بحار الدنيا وأنهارها وجبالها وأوديتها وسهولها وخلجانها وبحيراتها ومضيقاتها وكهوفها وجزائرها ومناطقها وترعها وجسورها وطرقها الحديدية».
- «وذكر الإنسان وما يتعلق به كمشاهير الرجال والنساء من قدماء ومعاصرين وأشهر أعمالهم وتواريخ حياتهم والمؤلفين منهم ومؤلفاتهم والطوائف من كل الأجناس وما يتعلق بهم».
- «وأسماء كل الأمم منذ ابتداء التواريخ إلى الآن مع تواريخ أعمالها وحروبها وعوائدها وملابسها وغير ذلك من متعلقاتها وكل دول العالم وأملاكها ونظاماتها ووزاراتها وجيوشها وقواتها العسكرية وقوانينها ومداخيلها ومصاريفها...».
- «وذكر الحروب وأسبابها ومواقعها وما يتعلق بها».
- «وذكر الأديان والمذاهب بأصولها وفروعها وكتبها واعتقاداتها».
- «وذكر ما يتعلق بالأدب كفروع العلوم واصطلاحاتها واختلافاتها بين الأمم وما يتعلق بها. والاوصاف الغريزية كالحسن والفج والكرم والبخل والفضيلة والرذيلة».
- «وذكر المدارس وهيئاتها. والتآليف والمشهورين بشيء منها وما شاكلها بصفاتها والفنون المتعلقة بها».
- «وذكر الصنائع بأقسامها وفروعها ومخترعيها والاكتشافات فيها وكيفية العمل بها والأجزاء والمواد اللازمة لها وما شاكل ذلك».
- «وفوق كل ذلك قد تحرينا أن نزينها بكثير من صور مشاهير الرجال والأماكن والحيوانات والنباتات والآلات العلمية والصناعية».

وهو يلخص هذا كله فى قوله:

«فهى والحالة هذه قاموس عام المعارف من جغرافية وتاريخية وعلمية وصناعية وسياسية وأدبية يحتوى على كل ما تصبو إليه النفس ويغنى مقتنيه عن مكتبه كبيرة».

(٢٠)

وقد خصص البستانى جزءا من مقدمة موسوعته للحديث عن طريقة التعامل مع الموسوعة والوصول إلى المعلومة المطلوبة من بين موادها، ولم يخصص لهذا المدخل فصلا مستقلا أو بابا خاصا أو تمهيدا على نحو ما نرى الآن فى الموسوعات والكتب المرجعية.

ومن الإنصاف أن نشير إلى ذكاء البستانى فى تسمية هذا الجزء «كيفية الطلب»، وهو تعبير يفوق فى ذوقه التعبير الشائع الآن «كيفية الاستعمال»، ونحن نلاحظ أن البستانى قد أجاد عرض فكرته فى تسهيل استعمال الموسوعة:

«رتبنا دائرة المعارف ترتيبًا قاموسيا سهلا يمكن كل من يعرف القراءة أن يستعمله وإن لم يكن عالمًا بالصرف والنحو فيكفيه أن يعرف تهجئة الكلمة التى يطلب التفتيش عليها فيطلبها فى الحرف الأول منها سواء كان من أصول الكلمة أو مزيدًا فيها فمن أراد مثلاً أن يفتش على إفريقية فيطلبها فى باب الألف أو على التجارة ففى باب التاء أو على مصطفى ففى باب الميم مع ملاحظة ما يتبع تلك الأحرف من سائر أحرف الكلمة بحسب وضعها فى حروف الهجاء».

(٢١)

ويسرد سليمان البستانى قواعد أصبحت الآن مستقرة فى ترتيب مواد الموسوعات حسب حروف الهجاء، لكننا نعجب من اتخاذه قاعدة تحويل التاء المربوطة إلى هاء، ولسنا نعرف سنده فى هذا:

«وإذا كانت المادة المطلوبة مركبة من كلمتين فأكثر فتعتبر ككلمة واحدة من حيث الترتيب مع اعتبار همزة الوصل الساقطة من ابن و الألف الساقطة من مثل إسحق وإسماعيل وبدون اعتبار ال التعريف إلا فى لفظ الجلالة».

«والحرف المشدد يعتبر حرفين فمدخل ابن قطبة قبل ابن القطان والهمزة الممدودة تعتبر ألفين ولذلك وردت آسيا قبل إبراهيم».

«والهمزة تحسب واوًا إن كتبت بصورة واو وياءً إن كتبت بصورة الياء وألفًا إن كتبت بصورة الألف».

«والألف التى بصورة الياء تحسب ياء والتاء المربوطة هاء».

«وجعلنا الهاء قبل الواو حسب اصطلاحنا فى قاموسنا محيط المحيط خلافًا لمن وضعها بعد الواو».

« والأسماء الملازمة للقب المتأخر يعتبر لقبها معها ككلمة واحدة كأحمد باشا و إبراهيم بك. و الاسمان المتضايفان يطلبان إلا فى ماندر فى حرف المضاف إليه فيطلب نهر إبراهيم فى إبراهيم وقدم آدم فى آدم فإذا لم تجده هناك فاطلبه فى حرف المضاف، وكذا حكم الصفة مع الموصوف فيطلب البحر الأسود فى الأسود وقد خرجنا عن هذا فى أكثر ما بدئ بابن وأبو ونحوهما فإننا وضعناه فى ابن وأبو تسهيلاً للطلب واتباعا للشهرة».

«وقد وجدنا أن الإفرنج (فى الأعلام الشخصية يجعلون اسم العائلة عنوانًا للذين يريدون أن يذكروا ترجماتهم ثم يردفونه بأسماء الأفراد الذين اشتهروا من تلك العائلة) فاستحسنا هذه الطريقة و اتبعناها فى ترجمات أعلام كثيرة وعلى الخصوص فى المتأخرين الذين قد جاروا الإفرنج فى ذلك (وأما الأعلام القديمة فقد ذكرناها تحت الأسماء التى اشتهرت بها فى كتب المؤلفين)».

«وقد حولنا أسماء بعض العيال (يقصد الابناء) منها إلى اسم العائلة ومن طالع كتب المؤرخين القدماء يرى أنهم قد اختلفوا كثيرًا فى ترتيب تلك الأسماء فمنهم من وضعها تحت ابن فلان ومنهم من وضعها تحت أبو فلان ومنهم تحت الاسم الخصوصى أو اللقب أو النسبة وربما كان المؤلف الواحد يذكر ترجمة واحدة تحت اسم وفى سياق تأليفه يذكر صاحب ذلك الاسم تحت أسم آخر، ولهذا لكى نسهل باب الطلب قد اعتمدنا على وضع الترجمات تحت أشهر اسم لصاحب الترجمة وربما حولنا المشهور إلى ما هو أقل شهرة لغرض. ثم ذكرنا باقى الأسماء فى محلاتها للطلب أو المراجعة بحيث يمكن مطالع تلك الكتب أن يجد مطلوبه بأوفر سهولة».

(٢٢)

ويجتهد البستانى بطريقة «براجماتية» فى محاولة منه لوضع مذهب يحسم به القضايا الخلافية فى ترتيب الموسوعات، وهو على كل حال يستحق الشكر بسبب اجتهاده ومحاولته على الرغم مما يبدو من استمرار حيرته :

«وأما تعداد أسماء العلم الواحد فمن حيث النظر إلى الأماكن التى ترد فيها بطريق العرض فإن ابن أبى رندفة مثلاً يذكر فى الكلام عنه هكذا أبو بكر محمد بن الوليد بن أبى رندفة الفهرى الطرطوشى. فإن هذا السرد لا يذكر كما هو فى كل مكان فإنه يتقسم فيذكر تارة ابن أبى رندفة وتارة أبو بكر الطرطوشى وتارة أبو بكر الفهرى الطرطوشى وتارة أبو بكر بن أبى رندفة وتارة أبو بكر بن الوليد الطرطوشى أو الفهرى وتارة محمد بن أبى رندفة وتارة الطرطوشى، و هذا الاختلاف مما يضيع به الفكر إذ يذكر فى كل كتاب باسم ولذلك قد اجتهدنا فى التحقيق على مثل ذلك».

«وقد تتفق الأسماء أيضًا كالحجاج بن يوسف الثقفى للعامل المشهور ولرجل آخر من الشعراء، وأبى محمد الجماعيلى لعلمين هما فى رتبة و احدة من الشهرة تقريبًا. فقد نبهنا على كل ذلك بعد التحقيق لئلا يكون للعلم الواحد ترجمتان تحت اسمين مختلفين».

«وأما الأعلام التى لا تذكر فى أبوابها فإما أن تكون قد أهملت لعدم أهميتها أو أنها ترد فى ترجمة بلد أو غيره لعلاقة تاريخية. وقد ضبطنا بالحركات المواد الأصلية وكثيرًا من الواقعة فى الشرح لصحة اللفظ ودفع اللبس».

(٢٣)

كان البستانى واعيا منذ كتابته لمقدمة الجزء الأول إلى أن الموسوعة ستتطلب فهارس عامة وملاحق، ولعل هذا مما خفف عنه عناء الوقوف عند تبرير كل خطوة من خطوات الترتيب أو التحرير:

«وسنضع بعد إنجاز الكتاب فهرسًا عامًا مرتبًا على حروف المعجم للكلمات الإفرنجية الواردة فى الدائرة كالفهرس الذى تراه فى آخر المجلد الأول وهو مثال للفهرس العام. وسنجعل للدائرة ملحقًا يتضمن زيادات وإصلاحات وتحقيقات إلى غير ذلك مما يقتضيه الحال تابعين متبعين فى ذلك أصحاب الانسكلوبيذيات من الإفرنج».

(٢٤)

ويتحدث البستانى عن لجوئه إلى كتابة الأعلام العربية بحروف إفرنجية ومعاناته من الاختلاف، وسعيه إلى وضع منهج لهذه الكتابة!! وهو موضوع يخرج عن تطاق حديثنا فى هذا الكتاب، وقد ناقشنا ما ذكره البستانى من أمثلة لمنهجه فى فصل آخر من كتاب لنا (نرجو أن يوفقنا الله الى نشره عن قريب) خصصناه للحديث عن القواعد والاختلافات والمرجعيات و التجارب والخبرات فى هذا الميدان.

(٢٥)

وبعد مجموعة من قواعد التاليف الموسوعى ختم البستانى مقدمته خاتمة طريفة حيث قال:

«ولم ننبه أحيانا على السنة ميلادية هى أو هجرية اعتمادًا على قيام قرينة هناك يعلم منها المراد كذكر الشهر وغير ذلك».

الفصل الخامس

لويس صابونجي

١٨٣٨ ـ ١٩٣١

(١)

واحد من أبرز المثقفين الموسوعيين العرب الهواة فى بداية عصر النهضة العربية الحديثة. عرف بإجادة اللغات، وبارتياد الرحلات، كما نبغ فى الصحافة، والكتابة، والترجمة، والتدريس، والتصوير الضوئى، وتشغيل الآلات.

يمثل إنجازه الممتد إنجازا شبيها الى درجة ما بإنجاز أحمد فارس الشدياق مع الالتفات الى التكنولوجيا وإن كان أقل منه إحاطة وعمقًا وتجديدًا.

كان صابونجى رجلا متعدد المواهب والإمكانات العقلية : كان يجيد العربية، والسريانية، والتركية،، واللاتينية والإيطالية والفرنسية، والإنجليزية، وكان كاتباً موهوباً، وشاعراً مطبوعاً، وقد حرص فى شعره ونثره على الألفاظ البسيطة الخالية من التعقيد والمحسنات اللغوية، ووصف نفسه بأنه «كاتب شعبى وليس بمنشئ لغوي».

وبالإضافة إلى اهتماماته الثقافية النظرية على نحو ما نقول، فقد كان صابونجى شديد الولع بتطبيقات العلم والتكنولوجيا، و كان هذا المنحى من النشاط العلمى يسمى فى ذلك الوقت «الصنائع وتركيب الآلات».

كذلك فإنه كان فناناً من طراز الموهوبين الذين تتعدد مواهبهم ومجالات عطائهم.

(٢)

اسمه بالكامل يوحنا لويس بن يعقوب بن إبراهيم بن إلياس بن ميخائيل بن يوسف صابونجى الأرفلى.

ولد لويس صابونجى فى نوفمبر (١٨٣٨) بمدينة ديرك التابعة لولاية ديار بكر، وكانت ولادته هناك من باب الصدفة بسبب هجرة والده إليها فراراً من وباء الهواء الأصفر الذى فشا وقتئذ فى ديار بكر، وقد كان والده يسكن بمدينة ماردين التى (تقع على الحدود السورية التركية الآن) بعدما هاجر أجداده من أورفا، ثم انتقل منها إلى ديار بكر.

ولما بلغ لويس صابونجى السنة الثانية عشرة ارتحل إلى بلاد الشام من أجل الدراسة فى مدرسة الشرفة بجبل كسروان، وفى مدينة بيروت نزل ضيفاً على منزل انطون طرازى الجد (الذى هو جد طرازى مؤلف الكتاب الشهير عن تاريخ الصحافة العربية)، وفى يناير ١٨٥٠ انتظم فى الدراسة وتلقى أصول اللغات العربية والسريانية والإيطالية، وفى يناير ١٨٥٤ أرسله اغناطيوس انطون سمحيرى بطريرك السريان الانطاكى إلى مدرسة مجمع انتشار الإيمان فى روما، ومنها نال رتبة ملفان (دكتور) فى الفلسفة.

وفى يونيو ١٨٦٣ عاد لويس صابونجى إلى مدينة ماردين فأراد البطريرك أن يمنحه رتبة الكهنوت، فتردد متمنعاً عن قبولها لأنه لم ير من نفسه ميلاً إلى الدخول فى هذا السلك الدينى، لكنه بتشجيع بعض الكهنة رضخ لإرادة البطريرك، ونالها فى ٢٩ نوفمبر ١٨٦٣، ثم ذهب إلى ديار بكر لزيارة أهله، ومنها إلى بيروت حيث عين رئيساً للطائفة السريانية.

هكذا نرى تنوع الطوائف المسيحية التى انتمى إليها الرواد الذين نتحدث عنهم فى هذا الكتاب فقد كان بطرس البستانى مؤسسا لكنيسة إنجيلية وطنية، وكان سليم شحاته من رواد العمل الاجتماعى الأرثوذكسى، وهذا هو صابونجى يبدأ حياته فى إطار الطائفة السريانية التى أصبح رئيسًا لها.

(٣)

وفى بيروت أنشأ لويس صابونجى مطبعة لنشر الكتب باللغات العربية والسريانية والتركية، كما أسس مدرسة متميزة، وكان من تلامذتها أنجال كامل باشا الحاكم العثمانى لبيروت، الذى صار بعد ذلك صدراً أعظم فى دولة الخلافة العثمانية، ويذكر له فى هذه الفترة أنه هو الذى أدخل فن التصوير الشمسى فى بيروت، ولم تكن بيروت قد عرفته حتى ذلك الوقت، وهو الذى أورث هذا الفن لأخيه جرجس الذى بزغ نجمه كمصور.

ولما قدم فرنقو باشا إلى جبل لبنان اختار القس لويس صابونجى أستاذاً لأولاده.

ثم عكف لويس صابونجى على دراسة فن الموسيقى وأتقنها، فأضاف إلى مواهبه وقدراته بعدا آخر، ولم يكن تعلم الموسيقى مما يحول بينه وبين المناصب الدينية أو التعليمية، وبدأ اتصاله بالإرساليات الأجنبية حيث اختاره رئيس المدرسة الكلية الأمريكية أستاذاً لتلامذتها فى اللغة اللاتينية، على حين كلفه فيلبس نمير رئيس المدرسة البطريركية بتعليم اللغتين التركية والإيطالية لطلبتها.

وفى ١١ مايو ١٨٧٠ أصدر لويس صابونجى مجلة «النحلة»، وبها ابتدأ نشاطه الصحفى لكنه سرعان ما انغمس فى المسائل السياسية والدينية، مما دفع راشد باشا والى سوريا إلى إيقاف المجلة، فأصدر صابونجى مجلة أخرى سماها «النجاح» أغلقت هى الأخرى، ثم أعاد إصدارها وكلف يوسف الشلفون بأن يكون كاتبها المسئول ثم تنازل عنها له ابتغاء الراحة.

(٤)

وما ان تخلص لويس صابونجى من مناخ التضييق السياسى حتى سولت له نفسه القيام برحلة طويلة بدأها فى أغسطس ١٨٧١، وكانت هذه الرحلة حتى ذلك الوقت ذات رقم قياسى فى أبعادها ومحطاتها، فقد استكمل ما أسماه دورة حول الأرض فى سنتين وسبعة شهور، وقد وصف نفسه بأنه كان «أول طوّاف من آل سام أتيح له أن يقوم بمثل هذه الرحلة»، وقد أشار إلى هذا المعنى أيضاً فى أبيات له فى قصيدة فى الفخر:

وقد طفت حول الأرض شرقا ومغربا وصيتى سرى قبلى يذيع برحلتـي

وما طاف قبلى من بنى ســام طائــف ولا جــال منهم بالبسيطة جولتي

ولما عاد إلى بيروت أعاد إصدار صحيفة «النحلة» باسم «النحلة الفتية»، لكنه سرعان ما اندفع إلى خلاف مع الطائفة المارونية حتى كاد يقتل، فهاجر إلى ليفربول بانجلترا حيث نشر رسالة سماها «موسى الحلاقة» وكرسها للرد على خصومه من المارونيين.

ورحل مرة ثانية إلى أمريكا وعاش فى نيويورك وفيلادلفيا بضعة شهور.

ثم عاد قاصدا مدينة مانشستر. واخترع فيها ما أسماه آلة صغيرة لنقل التصاوير، ومنح امتياز العمل بها فى دولة بريطانيا العظمى.

ثم نقل سكناه إلى لندن وباع حقوقه فى الآلة، واخترع آلة أخرى لفن التصوير وقد منح امتياز العمل بها من الحكومة الفرنسية.

(٥)

وفى لندن أعاد لويس صابونجى إصدار صحيفة «النحلة» عام ١٨٧٧ باللغتين العربية والإنجليزية، وحرص على أن تتضمن صوراً من الطبيعة، وصور رجال العصر المشاهير فى السياسة والعلم، وأنشأ أيضاً جريدة «الاتحاد العربي» وجريدة «الخلافة»، كما ساعد رزق الله حسون فى تحرير صحيفة «مرآة الأحوال» الشهيرة.

وفى هذه الفترة عمل لويس صابونجى أيضا وكيلاً خصوصياً لسلطان زنجبار، واستمر فى هذا العمل مدة ثمانى سنوات، مقابل مكافأة مالية سنوية إضافة الى الهدايا التى كان السلطان ينعم بها عليه.

(٦)

وفى ١٨٨١ ترك لويس صابونجى لندن بادئا خطا جديدا من محاولاته ومغامراته الذكية حيث بدأ رحلة إلى بلاد نجد ابتغاء الوقوف على أحوال سكان تلك الأقطار، وفى طريق عودته مر بالقاهرة حيث عمل لدى الدولة البريطانية في السنتين اللتين بلغت فيهما الثورة العرابية ذروتها، وعلى هذا فقد كان من المحتلين أو من أعوانهم، لكنه ينسب إليه أنه سعى مع مستر بلنت وحفيدة اللورد بيرون الشاعر الإنجليزى المشهور فى إنقاذ الزعيم أحمد عرابى باشا من الحكم الذى كان جلادستون رئيس الوزراء الإنجليزى قد أصدره بإعدامه مباشرة بلا محاكمة.

(٧)

ولما عاد لويس صابونجى إلى انجلترا قام بإلقاء المحاضرات عن رحلته، ويذكر أنه ظل يلقى المحاضرات تسعة أسابيع متواصلة فى «قصر البلور» بلندن، وحدث فى بعض الأيام أنه كان يحاضر تسع مرات فى النهار، وهو جهد جهيد وكان يحضر هذه المحاضرات نحو ألف

وخمسمائة شخص، كذلك خطب فى قاعة «الاثينيوم» بمدينة مانشستر، وفى مدرسة الصم والبكم. وانتقل ببعض هذه المحاضرات إلى باريس فألقاها فى قاعة الخطب، وفى «انستيتو رو دى» فى الشارع الملكى، وكذلك فى بعض القاعات المعدة للخطب فى المعرض العام الذى أقيم سنة ١٨٨٩ فى باريس وهو المعرض الشهير الذى أقيم برج إيفل من أجل دورته في ذلك العام والذى زاره عبد الله فكرى وابنه محمد أمين فكرى.

وبالمواكبة لهذا اختاره ولى عهد بريطانيا (الذى صار فيما بعد الملك ادوار السابع) أستاذاً للغات الشرقية فى دار الفنون التى أنشأها هذا الأمير بلندن، ودعاه مرتين إلى مائدته، وقد هيأ له هذا الموقع المتميز أن ينضم إلى عدد من الجمعيات الدولية.

(٨)

ثم كانت النقلة الاهم فى حياته:

ففى سنة ١٨٩٠ انتقل لويس صابونجى للعيش فى الآستانة حيث عينه السلطان عبد الحميد فى المعية الشاهانية وأنعم عليه بدار فسيحة مؤثثة فى إحدى ضواحى الآستانة،وقرر له راتباً شهرياً خمسين ليرة عثمانية، وسمح له بالمثول بين يديه مرتين فى الأسبوع، واختاره أستاذاً لأنجاله فى فن التاريخ العام، ومترجماً له من اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية إلى التركية، ثم عينه عضواً فى المجلس الكبير لوزارة المعارف، وكان هذا التكريم كله مما يصعب أن يناله رجل نشب الخلاف بينه وبين أقطاب طائفته الدينية المسيحية (!!) .

وكان صابونجى حريصا فيما رواه عن نفسه على أن يذكر أن خدمته للسلطان كانت بإذن صريح من بطريرك السريان جرجس الخامس، واذن آخر من القاصد الرسولى بالآستانة،

وقد بقى الدكتور لويس صابونجى على هذه الحال فى الآستانة مدة طويلة حتى أُعلن الدستور فى السلطنة العثمانية فاعتزل العمل الرسمى ملازماً بيته ومنقطعا إلى التأليف والمطالعة.

(٩)

يمكن تعداد الصحف التى أصدرها لويس صابونجي:

- «النحلة الحرة» مجلة، مصر، ١٨٧١.
- «النجاح» مجلة سياسية، بيروت، ١٨٧١، بالاشتراك مع يوسف الشلفون الذي خلفه فيها.
- «الاتحاد العربي» جريدة سياسية، لندن، ١٨٨١.
- «الخلافة» جريدة سياسية، لندن، ١٨٨١.
- «النحلة» جريدة سياسية، لندن، ١٨٨٤.
- «مجلس المبعوثان» الآستانة، بعد ١٨٩٠.

(١٠)

كان صابونجى شديد الحرص على وقته وصحته، وقد عاش طويلاً حتى أصبح بمثابة عميد الأحياء بين رواد الصحافة العربية، وقد استقر فى أخريات حياته فى مدينة لوس أنجلوس فى كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية، وقد اغتيل على يد لص طامع فى المال فى أثناء نومه ليلا فى أحد فنادق هذه المدينة.

(١١)

وفى شعره صورة بارزة للحضارة فى زمنه، وإجادة التعبير عنها وقد ضمن أشعاره أحاديث عن السكك الحديدية والقطار والباخرة والكهرباء واختراعات العصر عند الحضر، وقد أشار إلى ذلك فى قوله:

لأسفار أهل البيد رحلٌ وهودجٌ ونوقٌ عليه العرب تغزو وتسرح
ونحن قد اعتضنا عن الكل فى السرى بفلك كحوت البخر تجرى وتسبح
وفى البر سرنا فى قطار يجره بخارٌ يحاكيه العقاب المجنح

(١٢)

كان صابونجى كما أشرنا فناناً من طراز الموهوبين الذين تتعدد مواهبهم ومجالات عطائهم. وقد أشرنا فى مقدمة هذا الفصل إلى أن صابونجى كان شديد الولع بتطبيقات العلم والتكنولوجيا، وقد كان هذا المنحى من النشاط العلمى يسمى فى ذلك الوقت «الصنائع وتركيب الآلات».

وقد رأينا فى حديثنا أنه تعلم الموسيقى، وكذلك فإنه يروى أنه رسم لوحة زيتية طولها أربعة أمتار، وارتفاعها ثلاثة أمتار بألوان الزيت، تمثل تسلسل جميع الأديان من عهد آدم، وفيها ٦٦٠ شخصاً من الذين أنشأوا ديناً أو مذهباً مع طريقة عبادتهم ورموز عقائدهم وطقوسهم، بدأها منذ كان فى أمريكا سنة ١٨٧٢ وأكملها سنة ١٩٠٩، وقد ألف رسالة باللغة الإنجيزية هى بمثابة دليل أو مفتاح لها.

(١٣)

نال صابونجى بالطبع كثيراً من التقدير والتكريم، فنال وسام «شير خورشيد» من ناصر الدين شاه إيران، ثم الوسام العثمانى من دولة تركيا، ووسام الكوكب الدرى من حمد بن ثوينى سلطان زنجبار،كذلك فقد نال تكريم إمبراطور اليابان، وملك حيدر آباد.

وقد استقبلته الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا العظمى فى ٢٧ مايو ١٨٧٩، ونال مثل هذا الشرف مرتين من الحبر الأعظم فى روما، ومن ناصر الدين شاه إيران.

(١٣)

من مؤلفاته الكثيرة:

المطبوعات:

- «تهذيب الأخلاق»، بيروت.
- «تاريخ بطاركة السريان» يضم تاريخ طائفة السريان الكاثوليك منذ سنة ١٨٥٢ حتى

زمانه، ومنه نسخة مخطوطة فى دار التحف البريطانية بلندن.

- «مختصر تاريخ جميع الأديان»، لندن.
- ديوان «شعر النحلة فى خلال الرحلة» وهو مجموعة من أشعاره مزينة برسوم الملوك والأمراء والعلماء والشرفاء والأحبار، وقد طبع فى الإسكندرية، وأهدى منه نسخة مرصعة بالجواهر الكريمة إلى السلطان العثمانى.
- «النحلة والفتاة»، وهى الرسالة التى طعن فيها فى الطائفة المارونية، وكانت سبباً فى هجرته من بلاد الشام.
- «موسى الحلاقة» رسالة انتقادية أيضا، ليفربول، انجلترا.
- «أصل العرق الأيرلندي»، انجلترا.
- «فلسفة ما بعد الطبيعة».
- «عشر نبذات سياسية» مطبوعة على الحجر بخطه.
- «مرآة الأعيان فى تسلسل الأديان».
- «الرحلة النحلية» تتضمن رحلته حول الكرة الأرضية باللغتين العربية والتركية، وقد ذكر فيها أهم الشئون العلمية والتاريخية المنوطة بالبلاد التى زارها مع سكانها ولغاتها وصناعتها وزراعتها وتجارتها وحيواناتها وأديان أهاليها وعاداتهم وأخلاقهم، وقد طبع بعضه فى القسطنطينية وزينه بالعلوم الناصعة.
- «قاموس إنجليزى وعربي» نشره بالاشتراك مع الدكتور جرجس تاجر.

تحقيق:

- حقق ديوان ابن الفارض، وطبعه فى بيروت مع تشكيل الكلمات.

المترجمات:

- تذكر بعض المصادر أنه نقل إلى اللغة الإيطالية (!!) اثنى عشر كتابا من أشعار «فرجيل» الشاعر اللاتينى.

- ترجم من اللغة اللاتينية إلى العربية قاموس الألفاظ المصطلح عليها فى العلوم الفسفية وسائر العلوم والفنون.
- «المرآة السنية فى القواعد العثمانية» وهو من تأليف الوزيرين فؤاد باشا وجودت باشا، وقد نقله صابونجى من اللغة التركية إلى العربية على هيئة أسئلة وأجوبة، بيروت.

المخطوطات:

- «تاريخ فتنة حلب» ١٨٥٠.
- «تاريخ فتنة لبنان وسوريا» ١٨٦٠.
- «تاريخ الثورة العرابية فى الديار المصرية» ١٨٨٢.
- «الحق القانوني».
- «مشاهير الرجال».
- «جمال الكائنات».
- «الأصول المنطقية».
- «أفكاري» مخطوط جمع فيه كل ما جرى له من الحوادث مدة حياته فى مجلدات شتى.
- «مختصر تاريخ الأديان» باللغتين العربية والإيطالية.
- «السكان فى النجوم والأقمار».
- «شاءول وداود» رواية تمثيلية ترجمها من اللغة الفرنسية، ١٨٦٩، طبعها بخط يده على المطبعة الحجرية.
- «حر عثمانلي» باللغتين التركية والإنجليزية فى ١٢٤ صفحة بعد إعلان الدستور فى السلطنة العثمانية، وذكر فيه الحجج التى تثبت مطابقة القانون الأساسى للشريعة المحمدية وكيفية تشكيل مجلس المبعوثان بالإنصاف والعدالة.

- «مراثى أرميا الثانى الشجية على خراب أورشليم السريانية».

هذا بالإضافة إلي:

- مجموعة مقالات مرآة الأعيان فى تسلسل الأديان، نشرها على صفحات مجلة النحلة فى لندن.
- «مجموعة مقالات سياسية كتبها باللسان التركى، يبلغ عددها ٢٠٠ مقالة.
- «مجموعة قصائد لاتينية نظمها فى صباه.
- قصائد وأناشيد فى اللغة الإيطالية.
- مجموعة قصائد ومقالات سياسية فى اللغة الإنجليزية.
- مواعظ فى اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية.

الباب الثانى

الريادة المستقرة

الفصل السادس

سليم شحادة

١٨٤٨ - ١٩٠٧

(١)

واحد من الموسوعيين العرب الأوائل غير ذائعى الصيت، كان صاحب جهود علمية فى ترسيخ المعارف والمصطلحات التاريخية والجغرافية فى الكتابات العربية الحديثة، وهو صاحب أول مشروع لدائرة معارف عربية فى هذين الميدانين، وهكذا أضاف بعدًا جديدًا فى النهضة الحديثة واكبت، وربما سبقت، جهود بطرس البستانى فى دائرة المعارف وسليم البستانى فى الفن القصصى.

وصف كتابه الأشهر «آثار الأدهار» بانه تقليد لمنهج ابن خلدون فى مقدمته، وقدم للقسم التاريخى من موسوعته «آثار الأدهار» بمقدمة فى فلسفة العمران وبالبحث عن الإنسان وشئونه، قبل أن يتناول علم التاريخ وأحواله ومنشأه ونتائجه، وقد رتب موضوعات كتابه ومداخله على الحروف الهجائية، ونهج فيه منهج الموسوعات الأوروبية فى تناولها للموضوعات.

هو منشئ مجلة «ديوان الفكاهة» التى كان شاكر شقير أبرز مترجميها.

(٢)

ومن الطرائف أنه زامل ثلاثة كل منهم اسمه سليم وقد أثمرت زمالته لهم ثلاثة أعمال مهمة على نحو ما سنرى.

• فقد زامل سليم شفيق فى «حديقة الأخبار» وفى تأليف آثار الأدهار

• كما زامل سليم طراد فى انشاء «ديوان الفكاهة»

• وزامل سليم البستاني فى العمل الموسوعى والمجمع العلمى .

(٣)

ولد سليم بن ميخائيل شحادة فى بيروت فى ١٤ ديسمبر (١٨٤٨)، فى بيت علم، ودرس فى المدرسة الأرثوذكسية الكبرى المعروفة بمدرسة الثلاثة أقمار (أسست هذه المدرسة فى سوق الغرب ١٨٥٢ بينما كان فى طفولته الأولي)، فأتقن الفرنسية والعربية، ثم درس الإنجليزية والعلوم الحديثة على بعض مدرسى البعثات التبشيرية، وقد ظهر عليه منذ مرحلة مبكرة الشغف بالتاريخ وقراءته ودراسته.

أتيح له أن يعمل مع والده ميخائيل شحادة فى القنصلية الروسية (١٨٦٦)، وقد عرف فى أثناء تأدية هذا العمل الروتينى بمقدرته فى اللغتين العربية والفرنسية، ثم كان أهم من شاركوا والده فى تأسيس الجمعية الخيرية الأرثوذكسية فى بيروت، وقد ترأسها هو نفسه نحو سبع عشرة سنة، كما تولى إدارة شئون مدرستها نحو عشر سنوات.

وفى نهاية العقد السابع من القرن التاسع عشر تجددت «الجمعية السورية العلمية» (١٨٦٨) وهى التى كانت بمثابة مجمع من المجامع اللغوية العربية المبكرة، فكان سليم شحادة من أعضائها العاملين، وقد تجدد كيان هذه الجمعية (١٨٨٠) تحت اسم «المجمع العلمى الشرقي»، وكان سليم شحادة أيضا من أهم أعضائها مع إبراهيم اليازجى، وبطرس البستانى، وجورجى زيدان، وسليم البستانى، ود. فارس نمر، والدكتور فان ديك، ود. يعقوب صروف، وفى هذا المجمع العلمى ألقى سليم شحادة بعض المحاضرات التى نشرت فى مجموعة الأعمال الخاصة به.

(٤)

تولى سليم شحادة وزميله (وسميه) سليم شفيق تحرير القسم الفرنسى من جريدة «حديقة

الأخبار» التى أسسها صديقه خليل الخورى، وكانت تصدر باللغتين الفرنسية والعربية بدعم من فرنكو باشا ثانى من تولى منصب المتصرف الفرنسى فى لبنان.

وقد اتفق هذان الرجلان اللذان جمعتهما الصحافة كما جمعهما اسمهما الأول «سليم» على وضع موسوعة «آثار الأدهار» التى أشرنا إليها فى مطلع حديثنا، وشرعا فى إنجاز هذه الموشوعة، وساعدهما الكاتب المشهور أديب إسحق فى كتابة بعض الأبواب، وقد طبعا الجزء الأول من القسم الجغرافى (١٨٧٥) فى المطبعة السورية.

ولما توفى سليم شفيق (١٨٧٥) اضطلع سليم شحادة بالعمل كله، وطبع الجزء الثانى فى نوفمبر (١٨٧٥)، والثالث فى مارس (١٨٧٦)، ثم الجزأين الرابع والخامس، وقد ضمت هذه الأجزاء فى مجلد واحد كبير لكنها لم تتجاوز حرف الباء، و وصل عدد صفحاتها إلى ٩٨٠ صفحة من القطع الكبير، وقد وصل فيها إلى تاريخ بلجيكا.

ويتضمن «آثار الأدهار» تعريفًا بجميع قرى ومدن سوريا وأوروبا وأمريكا القديمة والحديثة وتاريخ نشأتها وخصائصها.

ومما يذكر لسليم شحادة أنه حرص على وجود اسم زميله على جميع الأجزاء، وذلك على الرغم من وفاة زميله على إثر إنجاز الجزء الأول.

(٥)

أما القسم التاريخى من الموسوعة فقد طبع الجزء الأول منه سنة ١٨٧٧ فى ٣٨٤ صفحة، وقد حفظ فيه أيضاً اسم زميله بعد أن مضت على وفاته سنتان، وعلى عادة أهل العلم والأدب أهدى هذا الكتاب بقسميه للأعتاب السلطانية (حيث كان على ولاء للسلطان العثماني).

(٦)

وقد واصل سليم شحادة كتاباته فى الصحف ونشر فى «المقتطف» مقالات مهمة عن الجغرافيا وجغرافيى الإسلام.

ولما أنشأ خليل سركيس مجلة «المشكاة» تولى خليل شحادة فيها كتابة مقالات مهمة فى تاريخ الأندلس وتراجم أهله ونوادرهم.

أما إنجازه الصحفى الخاص فتمثل فى إنشائه (١٨٨٥) مجلة «ديوان الفكاهة» الروائية بالاشتراك مع سليم طراد.

ويروى أنه اشتغل فى أواخر أيامه بوضع تاريخ مطول للكنيسة لم يتمه.

(٧)

عاش سليم شحادة حياة كريمة مستقرة، وجيها ومحبوبًا فى قومه، وقد أنعم عليه القيصر الروسى بوسام رفيع (١٩٠٢).

توفى سليم شحادة فى ١٥ أكتوبر ١٩٠٧.

الفصل السابع

سليم البستاني

١٨٤٨ - ١٨٨٤

(١)

هو سليم بن بطرس بن بولس بن عبد الله البستانى وفى مجال الكتابة والصحافة فإنه يعتبر بمثابة الامتداد الأول لأبيه بطرس البستانى (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) وهو ابنه البكر، ولد فى عبية، وتتلمذ على الأستاذ ناصيف اليازجى زعيم المحافظين فى عصره، وتعلم الإنجليزية والفرنسية والتركية.

ساعد والده فى حياته فى كتابة مواد كثيرة من مواد دائرة المعارف، كما ساعده فى إنشاء وتحرير ثلاثة من الصحف الأربعة التى أنشأها «الجنان» و«الجنة» « والحبنية»، لكن حياته مضت كلها فى ظل حياة والده، إذ توفى بعد والده بسنة واحدة، وكان من والده بمثابة إبراهيم باشا من والده محمد على الكبير (توفى إبراهيم باشا قُبيل وفاة والده).كما كانت حياته شبيهة بحياة والده فقد عمل مترجما مع المبشرين الأمريكيين فى دار الاعتماد الأمريكية (القنصلية) ببيروت،كما انتدبه والده لرياسة المدرسة الوطنية التى كان قد أنشاها سنة ١٨٦٣ كما عمل فى الصحافة، ومارس النشاط العلمى والسياسى.

تمثلت قيمته الأدبية البارزة التى فى ريادته لفن الرواية، ومع أنه مات مبكرا (٣٦ عاما) فقد ترك أساسا قويا للفن الروائى العربى، ومن قصصه الاجتماعية:

- «الهيام فى حنان الشام» (١٨٧٠).
- «أسماء» (١٨٧٢).

- «بنت العصر» (١٨٧٥).
- «فاتنة» (١٨٧٧).
- «سلمي» (١٨٧٨-١٨٧٩).
- «سامية» (١٨٨٢-١٨٨٤).

ومن أعماله المسرحية الرائدة

- «الإسكندر»،
- و«قيس وليلي»،
- و«يوسف واصطاك»،
- و«زنوبيا».

ومن الأقاصيص الكثيرة التى أخذها عن الفرنسية (بالترجمة أو التلخيص):

« يوسف وزوجة مريم»

« رجل ذو امرائين»

« الحيل بالحيل»

« حكاية الغرام»

ويرى بعض مؤرخى الأدب العربى أن دوره فى الرواية العربية محورى إن لم يكن دور البادئ أو المنشئ، على أن رواياته لم تحظ بالخلود وبالشيوع الذى حظيت به أعمال روائية تاريخية مناظرة أو معاصرة له، ويرى النقاد أن أقاصيصه سهلة الأسلوب مباشرة، ذات أسلوب تقريرى، وأن هدف الاصلاح الاجتماعى كان غالباً عليها.

وبالإضافة إلى اهتماماته الروائية فقد ترجم كتاب «تاريخ فرنسا الحديث».

كان سليم البستاني عضوا منتخبا فى بلدية بيروت، وفى المجمع العلمى الشرقى.

الفصل الثامن

شاكر شقير

١٨٥٠ - ١٨٩٦

(١)

على الرغم من أن اسم شاكر شقير لا يحظى بشهرة ذائعة فإنه موسوعى معجمى مجمعى مترجم أديب.

موسوعى من طراز الموسوعيين التنفيذيين الذين عرفتهم النهضة العربية الحديثة مبكرا بفضل نواة روح المؤسسة التى أوجدها بطرس البستانى وأبناؤه.

وهو واحد من رواد الصحافة العربية فى القرن التاسع عشر.

وهو أيضاً من رواد الفن القصصى فى العالم العربى

وقد عرف بأنه مترجم روايات مجلة «ديوان الفكاهة» فى بيروت، ومنشئ مجلة «الكنانة» فى القاهرة.

اسمه بالكامل شاكر بن مغامس بن محفوظ بن صالح شقير، ولد (١٨٥٠) فى الشويفات فى جبل لبنان، ودرس فيها، ثم انتقل إلى مدرسة الروم الأرثوذكس فى «سوق الغرب»، فأتقن العربية والفرنسية وشيئاً من اليونانية، وبعد تخرجه عاش فى بيروت وتلمذ للشيخ ناصيف اليازجى فأخذ عنه فن القريض (ومانسميه الآن اصطلاحا بالألعاب الشعرية من قبيل حساب الجمل والتأريخ بالشعر).

وفى (١٨٦٧) عهد إليه مطران اللاذقية بإدارة المدرسة الأرثوذكسية، وقضى فى هذه الوظيفة سنة واحدة، ثم عاد إلى بيروت فعمل بالتدريس فى مدرسة «الثلاثة أقمار» و«المدرسة الوطنية»،

ثم اختير (١٨٦٨) ضمن أعضاء «الجمعية العلمية السورية» التى كانت بمثابة أحد المجامع اللغوية المبكرة.

(٢)

كان أبرز التحولات فى تاريخ حياته الوظيفية هو عمله مع بطرس البستانى وأولاده (١٨٧٥) فى تأليف «دائرة المعارف» مدة عشر سنين متوالية، وقد ساعده هذا العمل على الارتقاء بثقافته وقدراته على التحرير والكتابة العلمية، فضلاً عن إجادة الترجمة ومعرفة الفروق الدقيقة بين المصطلحات المتناظرة، وكان فى الوقت نفسه يحرر فى مجلة «الجنان» وفى صحف أخرى مقالات بعضها موقع باسمه وأكثرها بدون توقيع.

تولى (١٨٨٦) المساعدة فى إدارة وتحرير مجلة «ديوان الفكاهة» وتولى طيلة ٣ سنوات ترجمة ما كان ينشر على صفحاتها من الروايات الأجنبية، وبقى فى بيروت يعمل بالصحافة.

ظل فى بيروت إلى أن اشتدت الرقابة على حرية الصحافة والمطبوعات فهاجر (١٨٩٥) إلى مصر حيث أنشأ مجلة نصف شهرية سماها «الكنانة»، ونشر فيها كثيراً من المقالات العلمية والروايات والقصص الأدبية وفنون الشعر، وبعد صدور عشرة أعداد فقط منها اعتلت صحته فعطل المجلة وعاد إلى مسقط رأسه حيث اشتدت عليه العلة وتوفى.

(٣)

وصف بأنه كان حجة فى معرفة لغة العرب وأحوالهم وتواريخهم وعلومهم، وكان شديد الذكاء، سريع الخاطر، ينظم الشعر ارتجالاً بلا تكلف، وقيل إنه لو جمعت أشعاره فى ديوان لبلغت نحواً من مجلدين ضخمين.

ولشاكر شقير مؤلفات كثيرة تشهد بموسوعيته وقدراته التحريرية منها:

- «لسان غصن لبنان» فى انتقاد اللغة العربية العصرية.
- و«أساليب العرب فى صناعة الإنشاء».
- و«مصباح الأفكار فى نظم الأشعار» (١٨٧٣).

- و«منتخبات الأشعار» (١٨٦٣).
- «أطوار الإنسان فى أدوار الزمان» وهى مقالات فكاهية أدبية تنطوى على الحكمة.

(٤)

ألف شاكر شقير وعرب روايات ومسرحيات كثيرة أشهرها

- «أسرار الظلام» ،
- «الأمير الصغير»،
- «أنيسة الصغيرة»،
- «الابن الوفي»،
- «البيضة الثمينة»
- «جزاء الخلوص»،
- حكاية الرجال .
- «ذى الضرتين» .
- «الزوجة المضطهدة»،
- الزوجة المضطهدة
- «الشجاعة الحقيقية»،
- «الصبية الخرساء»،
- «العيلة المهتدية» ،
- غرائب الاتفاق
- «الغلام الحبيس»،
- «فريد ورشيد»،
- «فضل إكرام الوالدين»،

- «الفتاة التقية»
- الفتاة الشقية»،
- «الكنار»،
- «كنيسة الحرش»،
- و«اللحام وابنه»،
- مجاهل إفريقية
- هند الغسانية.. ،
- «الورد والنسرين»،
- «الولد الشريد»،
- «الولد الصياد»،
- «اليتيم المظلوم»،
- «اليتيمة المسكوبية»،

كان قد شاكر شقير قد شرع كذلك فى تأليف معجم للغة العربية لكن العمر لم يسعفه.

- وترجم «آثار الأمم» للكاتب الفرنسى فولنى، كما عرب مختارات من حكايات لافونتين.
- كذلك فإنه عنى بطبع «ديوان أبى العلاء المعري» أكثر من مرة.

(٥)

ولشاكر شقير بعض الشعر:

نظم (١٨٧٠) «أرجوزة فى المعانى والبيان»،

ونظم أشعارا بديعية وشرحها شرحا موجزا (١٨٧٢).

وقد اشتهر من شعره قصيدة «الهلال» التى نظمها وهو فى العشرين، وكان موضوعها تهنئة الخديو إسماعيل بوسام مرصع أهداه إليه إمبراطور النمسا، وتعد هذه القصيدة نموذجاً للنجاح المعقد فى نظم الشعر تبعا لحساب الجمل، حيث التزم شاكر شقير فى كل صدر من أبياتها: تاريخها هجريا أى لسنة ١٢٨٧، وفى كل عجز: تاريخها ميلاديا أي سنة ١٨٧٠.

ووزع على أوائل الأبيات حروفاً إذا جمعت يتركب منها بيتان يتضمنان عشرة تواريخ: أربعة هجرية وذلك من الحروف المهملة من كل بيت منهما ومن الصدرين ثم من العجزين، وستة ميلادية وذلك من الحروف المعجمة من كل بيت ومن الصدرين ثم من العجزين ثم من صدرٍ لعجز ثم من عجزٍ لصدر (أى بطريقة القطر).

وقد جعل الأبيات المصدرة بحروف البيت الأول نسيبا، والأبيات المصدرة بحروف البيت الثانى مديحا.

(٦)

نال شاكر شقير شهرة في زمانه بقصيدة «الذهب الإبريز فى مدح السلطان عبدالعزيز» ونشرتها المطبعة العمومية، ١٨٧٣.

وقد نظم قصائد من «المحبوكات» أى من الشعر المحبوك الطرفين متبعاً طريقة الشاعر العربى الصفى الحلى، وهى تسع وعشرون قصيدة، كل قصيدة منها تسعة وعشرون بيتا على عدد حروف الهجاء، يبتدئ البيت منها بالحرف الذى ينتهى به على ترتيب الحروف من الهمزة إلى الياء،

(٦)

ولشاكر شقير رواية صنفها (١٨٦٩) عنوانها «سيرة مبارك بن ريحان مع محبوبته بنت الحان»، وهى رواية غرامية أدبية علمية، وضمنها أبياتا معجمة (أى أن كل حروفها منقطة)، وأبياتا خيفاء (أى أن منها كلمة مهملة وكلمة معجمة)، وأبياتا رقطاء (أى أن حرفا منها مهمل وحرفا معجم)، وأبياتا ثلاثة من عاطل العاطل (أى الذى لا نقطة فى اسمه ولا مسماه كالدال والصاد).. وهى كما نعرف فى العربية ثمانية حروف: الحاء والدال والراء والصاد والطاء واللام

والهاء والواو، فلا يسع المتكلم أن يؤلف منها كلاماً كثيراً) وقد عارض بها أبيات الشيخ ناصيف اليازجى الذى ابتكر هذا النوع فى الشعر.

كان شاكر شقير بارعاً فى الجناس المربع وما شابه ذلك من الألعاب الشعرية التى شهدت ازدهارا فى ذلك العصر، وهى أبيات تقرأ بطريقة الصفوف وبطريقة الأعمدة أيضاً، و كأنها كلمات متقاطعة يكون السطر (الأفقي) الاول فيها هو نفسه العمود (الرأسي) الاول، وكذلك يكون السطر (الأفقي) الاخير فيها هو نفسه العمود (الرأسي) الأخير،

وقد كنت فى شبابى أتخذها مادة لتهيئة الأذهان إلى شرح ما يعرف فى علوم الرياضيات بالمصفوفات:

رأيـــت	حبيبى	فزاد	هيامي
حبيبى	جفـــانى	اشتياقى	أمامي
فزاد	اشتياقى	وهـــاج	غرامي
هـــيامى	أمـامى	غرامى	مرامي

(٧)

وصفه النقاد بأنه شاعر فصيح العبارة، أقرب إلى الأساليب الشعرية التى كانت سائدة فى عصره، غير أنه كان يؤثر سهولة الألفاظ، كما لم يكن يخرج عن المعاني التقليدية.

يقول فى قصيدة «تخاف الشمس طلعتها» وهي من قصائده المشهورة فى زمانه:

بأبـى الـتـى سَبَتِ الفؤاد بقـــــاضبٍ ... مـن طَرْفهـا ومـن القـوام بكـــــاعبِ
بعث الهـوى مـنهـا إلـيَّ رســـــــالةً ... فصَبـا الفؤادُ وكـان خـيرَ مـجـــاوب
بـارحتُ قـلـبى فـى حـمـاهـا قـاصداً ... تبريـــــــــدَ غلَّته ببعـــــض مآرب
بَقِيَ الفؤاد معذباً بـدلالهـــــــــا ... فـاحتـار بـيـن تبـاعـدٍ وتقـــــارب
بـيـن السلـوِّ وبـيـنه فـى حـبـهـــــا ... مـا بـيـن أفراحٍ وقـلـــــــــبٍ ذائب
بـى مـن هـواهـا حســـــرةٌ لا تُرتضى ... لكـنهـا فـى الـحـــــب ضربةُ لازب
بِكْرٌ تخـاف الشمس طلعتهـا ومـــــن ... حسدٍ تجـيء لغـيظهـا بعجـــــائب
بشـروقهـا تبـدى الـتهـابًا كلـمـــــا ... ارتفعتْ وتخمد نـارهـا بـــــمغارب
بَعُدَ الـمزار عـلى الـمحـبّ فلـيس لـــى ... مـن وصْلهـا إلا رجـاءُ الخـــــائب

(٨)

ويقول فى قصيدة «ثقل الغرام»:

ثَقُلَ الغرام علــــــــيَّ وهْو حديثُ   حتى جرى لـيَ فـى الأنـــام حديثُ
ثقتى بإنصاف الغرام ضعـــــيفةٌ   إذ عهْدُه بـيـن الـورى منكـــــوث
نـبتَتْ صـفـاتُ السقـم فـــيَّ بنسبةٍ   مـن بعـد مـا قـد كـان فيــه حدوث
ثَمِلَ الجـمـيع بخمـرهِ حتى بــدا   فـى بعضهـم مـن عـاره تلــــويث
ثـاروا إلـيـه فبعضُهـــــم متذلّلٌ   والـبعضُ لـيس يفـيـده الـتديـــيث
ثلثُ الغرام بـه السقــــام وثلثه   عـارٌ، وثلثٌ قـلَّ فـيـه الهـــــيث
شهـمٌ لصيت الـواجيــــه بعضُه   والـبعضُ فيـه بعضهـم مـربـــوث
ثـمـرُ الغرام مـرارةٌ لكـــــنَّ مِنْ   تلك الـمـرارة حـلْوُهُ مبعـــوث
ثلجتْ بُعَيْدَ الـحـب نفسى فهـى لا   تعـنـو لـديـه فجـرحُـهـا ممثــــوث

(٩)

ويقول فى قصيدته «لمن استباح دمي»:

لآلٍ أم ثغورٌ كـاللآلـــــــــــى   ووجهكِ ذاك أم بـدء الكمـــــالِ؟
لـيـالٍ تلك أم شَعْرٌ وفـيـــــــه   جـبـيـنٌ لاح أم نــــــور الهـلال؟
لـمًى فـى فـيكِ أم مسْكٌ وهـــذى   ثـنـايـا أم بروقٌ فـــــــى زلال؟
لفـاعٌ فـوق وجهك أم غيـــــومٌ   عـلى شمسٍ عـلى بعض العـوالـــي؟
لعـوبٌ أنـت فـى مهج الرجـــالِ   أبخلٌ ذاك أم حُكْم الــــــدلال؟
لِمَ هـذا الـدلالُ عـلى مِطـــــالٍ   وقـلـبك مـثل قـلـبى فـى اشتعـــال؟

لئن كـنـتِ استبحتِ دمـى حـرامـــــاً فلـم تدرى الـحـرامَ مـن الـحـــــلال
لـذاك ظننـت أنَّ هـواكِ قـيـــــــدٌ س لقـلـبـى لـيس فـيـه مـن انحـــــــلال

(١٠)

ويقول فى قصيدته «نار الصبابة»:

نـارُ الصـبـابة فـى الفؤاد العـانـــــى قـد صـيَّرتْهُ دائمَ الخفقـــــــــانِ
نِعْم الصـبـابةُ فـى الصِّبـاء فإنهـــــا قـوتُ القـلـوب لأنفس الشبـــــظـان
نـادَى الهـوى فتسـارعت حالَ الصبـا كلُّ القـلـوب له بكل مكـــــــــان
نـبَّهتُ قـلـبـى للهـوى فتزاحــــمتْ آمـاله عِدَةً بكل أمـــــــــــــان
نسـى الفؤاد عذابـه وغدا بـــــــه متشـاغلاً حتى ابتُلِى بـهـــــــوان
نـاح الـحَمـامُ فهـيَّجَتْ أشجـــــانه يـا ويلَ قـلـبٍ هـائج الأشجـــــان
نعبت له غربـانُ بَيْنٍ قبـل مـــــا عـرف الهـوى فـاعتلّ بـالهجـــــران
ندم الفؤاد عـلى الهـوى مـن بعـدمـــا أفتى زمـان صبـاه بـالأحـــــــزان

(١١)

أما في قصيدة «سنى الحسناء» فى مدح السلطان عبدالعزيز فيقول:

أطلِقْ يراعك فـى جـمـيل ثنـــــاءِ واجعـلْه مَبـدا الـيُمْن فـى الإنشـــاءِ
إلهَجْ بأوصـاف الـمـلـيك الـمـرتقـــى بـالـحكـمة العـلـيـا ذُرى العـلـيـــاء
أهـوى سجـايـاه الـحـمـيـدة فهْى لـــى شـرفٌ ولـيست ظبـيةَ الـوعســـــاء
إنْ كـنـتُ أنطق بـالهـوى فتغزُّلـــــى مـنه بكل سجـــــــــــيَّةٍ غرّاء
أوصـافُه الـحسنـاء عـندى فـى الهـــوى أولى وأفضل مـن سنى الـحسنـــــاء

الـوارثُ السلطـانَ عـن أجـــــــداده إرثـاً سَمَا شـرفـاً إلى الجـــــــوزاء

الفـاضلُ الشهـم الكريـم الكـامـل الـــ ـمـلكُ الـحـلـيم وأوحد العـظـمـاء

آلاؤه قـد كلَّلـتْ هـامَ الـــــــورى تـاجَ النجـاح فقـد بـــــــدا بجلاء

الـيـومَ أبـوابُ العـلـــــــوم تفتّحتْ فـى الشـرق والآداب فـــى استجلاء

الـيـومَ أصـبحتِ الـبـلادُ مـنـــــــيرةً بشمـوس نُجْحٍ فـى ازديـاد ضيـاء

ألقَى عـلـيـنـا نظـــرةً أبـــــــويّةً فى الشـرق تُرضعـنـا حـلـيبَ ذكـاء

أمسـى عـلـيـنـا حـــــــمدُه ومديحه دَيـنـاً وإن نَكُ لـم نقـم بـوفـــاء

توفى شاكر شقير فى أكتوبر سنة ١٨٩٦.

الباب الثالث

حُصَّاد المجد

الفصل التاسع

الكلية السورية الأمريكية فى بيروت

• اتفق الرواة على أن فكرة إنشاء الكلية السورية البروتستانتية في بيروت قد تبلورت في بيت الأستاذ فان ديك ببيروت عام ١٨٦٣، عندما اجتمع صاحب البيت بأعضاء الإرسالية الأميريكية وبحضور قنصل أميركا في بيروت.

• تأسست النواة عام ١٨٦٦ على هيئة شركة خاصة مستقلة هدفها إنشاء نواة لجامعة على أن تكون مؤسسة غير طائفية.بعدما حصلت على ترخيص من ولاية نيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية.

• أطلق عليها في ذلك الوقت اسم الكلية السورية البروتستاتية، واختير دانيال بليس (ولد عام ١٨٢٣) أول رئيس لها. وتقديرا له فيما بعد سمي الشارع الملاصق لسور الجامعة باسمه شارع بليس وكذلك سمي أحد مباني الجامعة الرئيسة باسمه .

• افتتحت الكلية في ٣ ديسمبر عام ١٨٦٦ لتمارس نشاطها في بيت مستأجر ببيروت وضمت ١٦ طالباً فقط.

• اعتمدت الكلية اللغة العربية للتدريس لمدة ١٧ سنة ثم اعتمدت اللغة الإنجليزية في التدريس بعد ذلك وحتى الآن ومن هنا فإنه سرعان ما تضاءل أثرها في بيئتها وتحول من شرارة نهضة إلى شمعة فحسب.

• عرفت بأنها لا تقدم برامج للدراسات العليا في الطب، و لا تقدم أيضًا برامج للتعليم المهني

• كانت الهيئة التعليمية في سنتها الأولى (١٨٦٦-١٨٦٧) تتألف من ١٣ مدرسًا يتولون تدريس اللغات العربية والإنجليزية

• كان من برامجها في سنواتها الاولي تدريس التركية واللاتينية وتاريخ العرب القديم وتاريخ الديانات والتوراة .

• في عامها الثاني (١٨٦٧ – ١٨٦٨)، أنشئت كليتا الصيدلة والطب

• لما تأسست كلية الطب بالجامعة، انضم فان ديك إلى أساتذتها، وطلبت الإدارة منه تحديد راتبه السنوي بنفسه – لمكانته العلمية المرموقة – فوافق، وسألهم عن راتب أصغر أستاذ في الجامعة، قالوا له ١٥٠٠، فكتب في عقده إن راتبه هو ٧٥٠، وعندما سألوه لماذا فعلت ذلك، أجابهم «إنما أفعل ذلك حُباً في خير هذه البلاد ونفعها ونفع أهلها».

• بعد عقد من الزمان من نشأة الكلية أصبحت الدراسة تشمل:الصرف والنحو واللغة الإنجليزية والأدب والجبر والهندسة والكتاب المقدس والموسيقى والخطابة. والفلك والفلسفة العقلية والأخلاق والتاريخ وعلم طبقات الأرض وعلم النبات والحيوان والموسيقى والإنشاء والخطابة.

• فيما بين عام ١٨٧١ و١٩٠٧، خرجّت الكلية ١٥٤ طالبا من سوريا، و٧٥ طالبا من مصر، و٣ طلاب من العراق، و٦٩ طالبا من بقية الولايات العثمانية.

• في عام١٩٢٠أصبح اسمها الجامعة الأمريكية في بيروت، واعتمدت في تدريسها المنهج الأميركي في التعليم و معايير وقيم التعليم العالى المتبعة في أمريكا وأصبحت منذ ذلك حريصة على أن تقدم نفسها على أنها مؤسسة تعليمية مفتوحة لجميع الطلاب دون تمييز في الأعراق أو المعتقد الديني أو الوضع الاقتصادي أو الانتماء السياسي..

• اختيرت أرض مساحتها اكثر من ٧٠٠ فدان في منطقة رأس بيروت لتكون حرمًا جديدًا للجامعة يطل على البحر المتوسط ويشرف على جبل لبنان، كما يمكن منه مشاهدة قمة الجبل .

الفصل العاشر

د. يعقوب صروف

١٨٥٢ - ١٩٢٧

(١)

هو فى رأيى أبرز رواد الثقافة العلمية فى العصر العربى الحديث، وهو صاحب الفضل فى وضع كثير من المصطلحات العربية للمفاهيم الجديدة فى العلوم والفلسفة والمعرفة على وجه العموم، وقد أضاف إلى ثروة اللغة العربية ألفاظاً واصطلاحات علمية ابتكرها أو نحتها أو استخرجها من المظان المجهولة، وساقها باقتدار فى نسيج مقالاته فى الفلسفة والأدب والتاريخ، وقد كان على مستوى أهل زمانه محققاً وعالماً من علماء الفلسفة والرياضيات والفلك. وهو مؤرخ، ومؤرخ صادق.مولع بالتاريخ و بتراجم الأعلام،

وهو واحد من أهم المترجمين عن الإنجليزية، كما أنه صاحب الفضل فى إطلاع القراء العرب على كثير من الاتجاهات الفكرية الجديدة فى زمنه حين كان الاتصال بالأفكار لا يتم إلا من خلال المواد المطبوعة،

وكانت له رؤى اجتماعية تقدمية، فكان على سبيل المثال يطالب الحكومة بوضع حد لغنى الأغنياء ومالكى الأرض، « كما تضع حدا لأقوياء الأبدان والمهرة فى استعمال السلاح حتى لا يستعملوا أبدانهم وأسلحتهم للإضرار بالغير».

وهو ثانى اثنين أسسا مجلة «المقتطف» فى بيروت والقاهرة، كما أنه واحد من المؤسسين الثلاثة لجريدة «المقطم» فى القاهرة.

(٢)

اسمه الكامل يعقوب بن نقولا صروف.

ولد يعقوب صروف فى ١٨ يوليو ١٨٥٢ فى قرية «الحدث» بلبنان، وتلقى تعليماً مدنياً منتظماً والتحق بالكلية السورية فى بيروت عند تأسيسها، وقد أتيح لها أن تكون بمثابة جامعة صغيرة (أصبحت نواة كاملة فيما بعد للجامعة الأمريكية فى بيروت)، وقد تخرج فيها سنة ١٨٧٠ حاصلا على بكالوريوس فى العلوم ضمن أول دفعة تخرجت فى هذه الكلية وربما أنه أنبه خريجيها شأنًا، وقد عمل عقب تخرجه فى مدينة صيدا حيث تولى تعليم اللغة العربية لرجال الإرساليات الأمريكيين، وظل فى هذه الوظيفة طيلة سنتين.

ولما أنشأ رجال الإرساليات مدرسة عالية فى مدينة طرابلس الشام عرضوا عليه رئاستها فتولاها سنة واحدة، ذلك أن المدرسة الكلية السورية التى كان قد تخرج فيها قد اختارته (فى العام التالى مباشرة، أى فى أواخر ١٨٧٣) لتدريس العلوم الرياضية والفلسفة الطبيعية فيها.

ومنذ ذلك الحين عكف يعقوب صروب على الدرس والتدريس، وكان أستاذاً متميزاً غير تقليدى ذا منهج خاص فى التدريس.

وقد عرف عنه منذ ذلك الحين العناية بتوظيف المعارف العلمية،، كاستخدام علم الهندسة وحساب المثلثات فى تطبيقات عملية من قبيل مساحة الأراضى، وصنع الآلات الكهربية.

ومما يروى عنه منذ هذه الفترة أن السبب فى اختياره لهذه الوظيفة أنه كان وهو تلميذ فى الكلية السورية ذاتها قبل سنوات صنع آلة تدور بالماء تقليداً لمطحنة «باركر»، واحتفظت المدرسة بهذه الآلة الطبيعية، وكان لهذه الآلة الفضل فى تذكير رئيس تلك المدرسة بالخريج يعقوب صروف (!!) فى الوقت الذى كانت المدرسة تبحث فيه عن أستاذ لتدريس علم الفيزيقا..

(٣)

وبعد فترة أسند إلى يعقوب صروف تدريس الكيمياء الوصفية والتحليلية، كما انتدب لتدريس الكيمياء الباثولوجية والأقرباذينية وعلم السموم لطلاب الطب، ولأن هذه العلوم

الثلاثة لم تكن تدّرس فى المدرسة الكلية من قبل، فإنه عمل على أن يؤلف لها مجموعة محاضرات تكون بمثابة المرجع لها، وألف بالإضافة إلى هذا كتاباً مدرسياً كبيراً فى الكيمياء، وقد ظل يعمل فى المدرسة السورية الكلية حتى تركها فى أواخر سنة ١٨٨٤.

(٤)

ثم جاء الوقت الذى أصدر فيه يعقوب صروف أعظم أعماله وهو «المقتطف» المجلة العلمية الشهيرة، وهى المجلة التى أنشأها بالاشتراك مع زميله الدكتور فارس نمر (١٨٧٦) حين كانا يعملان فى المدرسة الكلية، وظلا يحررانها بالاشتراك، ولما انتقلا بالمقتطف إلى مصر (١٨٨٥) كانت شهرتهما العلمية قد سبقتهما إليها وهكذا رحب بهما ساسة مصر وعلماؤها، وفى مصر أصدرا «المقطم» (١٨٨٩) والمقتطف.

تفرغ الدكتور نمر لإنشاء «المقطم» بينما تفرغ الدكتور صروف لإصدار «المقتطف» وتحريره.

كانت «المقطتف» بلا شك من أرقى المجلات كما أنها كانت أبرز المجلات العلمية العربية، وقد أخرج منها الدكتور يعقوب واحدا وسبعين مجلدا، وقد ظل يعقوب صروف طيلة حياته رئيساً لتحريرها، كما كان بمثابة كاتب معظم مقالاتها، وفى هذا الصدد فإنه كثيراً ما يقال إنه كان يكتب كل المقتطف، إلا ما ينشر منها تحت اسم غيره، ذلك أنه كان يحرر كثيراً من الأبواب كباب الصناعة، وباب الزراعة، وباب تدبير المنزل، وباب التقاريظ، وباب المسائل والأخبار، وكان ينشر فى كل جزء مقالات مختلفة المواضيع بين فلسفية، وعلمية، وأدبية، والأخبار المقتطفة من أشهر الصحف العلمية فى أوروبا وأمريكا.

(٥)

وقد تأثر يعقوب صروف بالازدواجية الأسلوبية التى كان عبد الله فكرى وحسن العطار من قبله قد أرسيا أسسها، فقد كان أسلوبه الأدبى مختلفا عن أسلوبه العلمى تماما، فكان يكثر من السجع والتمثل بالشعر فى المواضيع الأدبية «كالصداقة» و«نعيم الدنيا» و«الاغتراب» و«المهاجرة» و«فوائد الغنى ومضاره» على حين كان يلتزم بملامح الأسلوب العلمى فى الموضوعات الفلسفية والعلمية «كمقياس العقول» و«الحياة وآراء الفلاسفة فيها» و«آراء الناس فى النفس» و«غرائب العقول» و«حرية الإرادة».

وكان يعقوب صروف على العموم يتجنب غريب الألفاظ لأنه كان يعتبر اللغة وسيلة لا غاية وكان يلجأ إلى التبسيط، والإيضاح فى المواضيع العلمية.

(٦)

كانت ليعقوب صروف اهتمامات ثقافية تتعدى نقل المعارف والتعريف بها إلى محاولة فهمها ومقارنتها.

كان يعقوب صروف حفياً على سبيل المثال بما سماه المقارنة بين «نوابغ العرب والإنجليز»،

- قارن بين أشعار كل من أبى العلاء المعرى والشاعر ملتن الإنجليزى،وقد كتب دراسة مقارنة بين ديوان المعرى المعروف «سقط الزند» وديوان ملتن المعروف «الفردوس المفقود»،
- قارن بين «مقدمة ابن خلدون» وما كتبه الفليسوف هربرت سبنسر فى «علم الاجتماع الإنساني».
- كما قارن سيرتي السلطان صلاح الدين الأيوبى والملك ريتشارد قلب الأسد الإنجليزي.
- قدم تلخيصا لكتاب سلاتين باشا «السيف والنار فى السودان»فى فصول قليلة.

(٧)

وكانت ليعقوب صروف جهود بارزة فى أدب الرحلات

وقد سجل رحلته إلى الصعيد الأعلى وسماها «رسائل النيل»،

سجل رحلته إلى عواصم أوروبا وسماها «مشاهد أوروبـا» ونشرت كلها فى المقطم والمقتطف. وكان قد قام برحلة خارجية زار فيها عواصم أوروبا (١٨٩٣)، كما زار أوروبا مرة أخرى (١٩٠٠) وحضر معرض باريس فى ذلك العام.

(٨)

ظل يعقوب صروف حريصاً على ترجمة كل ما يعجبه من المقالات والكلمات التى تذاع فى

الخارج، وهو الذى عرف القراء العرب بكتاب كبار ومفكرين من طراز هاكسلى، وسبنسر، وكلفن، وباستير، وماركونى، وكوخ وغيرهم،

كما أنه هو الذى قدم لقراء العربية فى مقالاته السياسية فكر جلادستون، وبسمارك، وسلسبرى.

وقد شارك يعقوب صروف أيضاً فيما كان ينشر فى مجلة «اللطائف» لمنشئها شاهين مكاريوس، وقد اشترك فى تحريرها طيلة أربع سنوات، وكان يكتب كثيراً من المقالات والفكاهات والنبذات المختلفة، كما كان ينقح ما ينشر لغيره، بما يوازى ما نسميه الآن: إعادة الكتابة والتحرير.

كذلك فقد كان يتولى المسئولية عن تحرير المقطم إذا غاب زميله الدكتور فارس نمر أو امتنع عن التحرير لأى سبب، وإن كان تراثه الفكرى فى المقطم يعد قليلا جداً إذا ما قورن بإنجازه الفخم فى المقتطف.

(٨)

وبالاضافة إلى هذا كله فقد كان صروف شاعراً، ويروى أنه نظم الشعر الجيد وهو فى الرابعة عشرة من عمره، لكن المناسبات الوجدانية تغلب على أشعاره، وله أشعار فى وصف «مشاهد أوروبا» ولاسيما «وداع باريس» و«وداع لندن» و«وصف رأس البر»، وعلى سبيل المثال فإنه يقول فى قصيدته فى «وداع باريس»:

ودعـــت باريـــس مفتـونـــا بمرآها وآى حسن تجلى من محياها
وجاه ملك رفيع الشان جاور ها دهرا طويلا ولم يبرح بمغناها
رواقـــه مســـطر فى معالمها وبـــدره مشرق فى أوج علياها

(٩)

اقترن يعقوب صنوع (١٨٧٨) بالسيدة ياقوت بركات، وقد نشرت زوجه على صفحات المقتطف كثيرا من المقالات، وقد ظل يعقوب صروف معتزاً بزوجه وبمشاركاتها له.

كان ليعقوب صروف نشاط اجتماعى وعلمى فى بيروت حيث كان يتولى رئاسة جمعية شمس البر بضع سنوات، كما أسهم فى تأسيس بعض المدارس الأهلية، وإليه يعود الفضل فى تأسيس المجمع العلمى الشرقى، (وهو أحد المجامع اللغوية المبكرة) وهو الذى وضع قانونه.

(١٠)

نال يعقوب صروف كثيراً من التقدير الرسمى والعلمى ونال (١٨٩٠) لقب دكتور فى الفلسفة من المدرسة الجامعة فى نيويورك.

وانتدبته لجنة مجمع المعرض الأمريكى العام مع زميله الدكتور فارس نمر للكتابة عن أحوال مصر ومستقبلها، فكتب فى ذلك رسالة مسهبة باللغة الإنجليزية تليت فى إحدى جلسات ذلك المجمع، وكان كثير من علماء أوروبا وأمريكا يعتمدون عليه فى تحقيق المسائل العلمية الواردة فى المؤلفات العربية.

(١٠)

آثاره:

عّرب كتاب «سر النجاح» لصموئيل جميلز الإنجليزى، ولم يكتف بتعريبه وتسميته وانما إضاف أشياء مهمة عن مشاهير العرب إليه.

كما عرّب سير «الأبطال القدماء والعظماء» بالاشتراك مع الدكتور فارس نمر، وفى تحرير هذا الكتاب تتجلى أخلاق المترجمين وتمسكهما بالفضيلة.

من مؤلفاته:

- «بسائط علم الفلك».
- «فصول فى التاريخ الطبيعي».
- «الحلى الفيروزية فى اللغة الإنجليزية».

ومن مترجماته:

- «سر النجاح».
- «الحرب المقدسة».
- «الحكمة الإلهية».

وألف بالاشتراك:

- «سير الأبطال والعظماء» بالاشتراك مع فارس نمر.
- «مشاهير العلماء» بالاشتراك مع فارس نمر.

له نحو عشرين قصة منها:

- «فتاة الفيوم».
- «أمير لبنان».
- «فتاة مصر».

الفصل الحادى عشر

سليمان البستاني

١٨٥٦ - ١٩٢٥

(١)

إذا كان هناك مثل بارز على أن الأعمال بالنيات، حتى فى مجال الفكر، فإن هذا المثل يتمثل بوضوح فى جهد سليمان البستانى الذى كان على الرغم من مسئولياته السياسية حفيا بفكرة الموسوعية والعمل من أجلها، وكان من حظه أن خلد اسمه بعمل لا يقل شهرة عن الموسوعة، وهو ترجمته الشهيرة للإلياذة، وهى الترجمة التى لم يظهر ما يزيحها أو يحل محلها طيلة قرن كامل، على الرغم مما قد يكون قد اعتراها مما يعترى الأعمال الرائدة.

هو سليمان بن خطار بن سلوم البستانى وكثيرًا ما يحرص الكاتبون عنه على ذكر اسمه الثلاثى تمييزًا له عن كثيرين يشتركون معه فى الاسم.

تمثل إنجازه الفكرى فى ترجمته المبكرة للإلياذة عن اليونانية مباشرة، فضلا عن محاولته إتمام الموسوعة التى بدأها بطرس البستانى.

(٢)

قبل هذا وفى أثناء هذا وبعد هذا كان سليمان البستانى سياسيا مخضرما عرف البلاد العربية على الطبيعة، ومارس التجارة والسياحة والتأليف والتأريخ والإدارة.

كان من أبرز الساسة العرب الذين تعاونوا مع الدولة العثمانية فى فترة احتضارها، قد وصل إلى عضوية مجلسى المبعوثان والأعيان، كما تولى الوزارة وعمل سفيراً فوق العادة، ومثل تلك الدولة العظيمة فى عواصم حضارات الغرب ودوله.

(٣)

ولد سليمان البستانى فى ٢٢ مايو ١٨٥٦ فى قرية «بكشتين» فى قضاء الشوف بلبنان وقيل بل ولد فى قرية «الدبيّة» بلبنان، وتلقى تعليمه الأولى على يد عم أبيه المطران عبد الله البستانى وفى سن السابعة التحق بالمدرسة الوطنية التى ازدهرت على يد بطرس البستانى، وظهر فيها نبوغه المبكر.

وألم سليمان البستانى فى أثناء دراسته بلغات كثيرة منها السريانية، والعبرية، والفارسية، والتركية، والإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية. ونال شهادة إتمام الدراسة بالمدرسة الوطنية ١٨٧١.

عمل بالتدريس فى المدرسة الوطنية التى تخرج فيها، كما عمل فى الصحافة فى «زهرة الآداب» و«الجنينة» و«الجنان»، وبالترجمة فى القنصلية الأمريكية.

ألم بعلوم الرياضيات والكيمياء والقانون والزراعة والتجارة وعلم المعادن والاجتماع والتاريخ فضلًا عن اللغات التي ألم بها.

وفى شبابه كان قد شغف بالشعر القصصى والأساطير، وعمد إلى نظم مقطوعات شعرية قصيرة، لكن شاعريته ما لبثت أن تفتحت ونضجت مع الإلياذة التى ترجمها ترجمة رائعة.

سافر سليمان البستانى للعراق حيث أسس مدرسة هناك، ثم عمل بالأعمال الحرة، وسرعان ما ارتفع شأنه واختير عضوا فى المحكمة التجارية ببغداد، كما اختير مديرا لشركة عمان البحرية العثمانية.

(٤)

عاد البستانى إلى بيروت (١٨٨٥) حيث تفرغ لترجمة الإلياذة بعض الوقت، ثم رحل إلى الآستانة والقاهرة، وعاد إلى الارتحال إلى العراق والهند وبلاد الفرس، ثم عاد إلى بغداد، وفيها ألف كتابه المشهور «تاريخ العرب».

اهتم بالآثار وبتتبع تاريخ المواضع المشهورة فى التراث الشعرى العربى، وساعده على هذا ارتحاله في البلاد العربية كاليمن ونجد وحضرموت.

عهدت إليه الدولة العثمانية (١٨٩٣) بالإشراف على القسم العثمانى فى معرض شيكاغو الدولى، وأقام بعدها فترة فى أمريكا، وأصدر صحيفة تركية هناك لكنه تعرض لغضب العثمانيين، واشترت السفارة العثمانية فى واشنطن الجريدة.

وانتقل بعد هذا إلى مصر واشترك مع نجيب ونسيب البستانى (أبناء بطرس البستانى الكبير) فى إخراج الجزأين العاشر والحادى عشر من دائرة المعارف التى بدأها والدهم وهى الأجزاء التى أعاد فؤاد إفرام النظر فيها وأصدرها فى ١٩٠٦، كما شارك فى بعض لجان إنشاء الجامعة المصرية وجمعية الكتّاب. وأقام بمصر حتى سنة ١٩٠٨ واشتغل فيها بالأعمال الحرة والتجارة والمضاربة. وترأس جمعية «الكتاب» وانتخب عضوا فى مجلس «الجامعة المصرية»، وكان أثناء ذلك لا يذهب إلى لبنان إلا للمضيف.

(٥)

ولما أعلن الدستور العثمانى نشر سليمان البستانى كتابه الشهير «عبرة وذكرى.. الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده»، وقد صدّره بإهدائه «إلى أبناء وطنى العثماني»، داعيا إلى نبذ التعصب وإلى الحرية والإصلاح.

وسرعان ما نشط سليمان البستانى مع الاتجاه الراديكالى الذى كان يمثله حزب الاتحاد والترقى وانضم إلى هذا الحزب، وعين نائبا فى مجلس المبعوثان العثمانى وكان هو و رضا بك الصلح نائبين عن بيروت.

وظهر لسليمان البستانى نشاط بارز فى مجلس المبعوثان اتسع ليشمل العلاقات الخارجية والبرلمانية الدولية، وفى هذه الفترة ظهرت ميوله العروبية على أبهى صورة، فقد انحاز إلى تمكين اللغة العربية فى المصالح الحكومية، ودعا إلى ضرورة إلمام الموظفين العثمانيين فى البلاد العربية بها، كما دعا إلى الاعتماد عليها فى المحاكم والمدارس الحكومية، ومنع غير العرب من تدريسها،

وإعادة تعيين الموظفين العرب الذين كانوا قد فصلوا بسبب جهلهم التركية، وعنى بلفت النظر إلى العناية بالمهاجرين الشوام فى بلاد المهجر.

ويذكر له فى هذه الفترة أنه هو الذى تولى إنشاء المجلس الملى المختلط فى فلسطين حلا لمشكلات الطوائف المسيحية.

(٦)

شارك سليمان البستانى فى خلع السلطان عبد الحميد، وبرز نجمه بعدها حتى انتخب (١٩١٠) رئيسا ثانيا لمجلس المبعوثان، فرئيسا للوفود السلطانية إلى الخارج. وبهذه الصفة كان رئيس الوفد الذى أعلن تولية السلطان محمد رشاد للعرش العثمانى.

وعين سليمان البستانى (١٩١١) سفيرا فوق العادة للدولة العثمانية فى روما، ثم باريس، وبرلين، وبروكسل، وبطرسبرج، واختير عضوا فى مجلس الأعيان.

ثم أصبح سليمان البستانى وزيرا وكلف (١٩١٣) بوزارة الزراعة والتجارة والغابات والمعادن فى وزارة الصدر الأعظم سعيد حليم. كان ممن حاولوا منع الدولة العثمانية من دخول الحرب العالمية الأولى دون جدوى، واستقال من الوزارة واعتزل السياسة، وسافر إلى سويسرا للاستشفاء، وأجرى جراحة لكنه عانى المتاعب الصحية فى سويسرا وعاد إلى مصر.

دعى سليمان البستانى إلى تركيا للتعاون مع نظام مصطفى كمال أتاتورك لكنه اعتذر، وسافر إلى الولايات المتحدة حيث كرمه أدباء المهجر لكن صحته انتكست وأصيب فى عينيه بألم شديد، ثم كف بصره، ولزم المنزل حتى توفى فى نيويورك فى الأول من يونيو سنة ١٩٢٥م، وعرض جثمانه فى قاعة الكنيسة المارونية بنيويورك ثم نقل إلى كنيسة لاتينية. ثم نقل جثمانه ليدفن فى مسقط رأسه «بكشتين».

(٧)

نكرر أن أهم أعماله هو ترجمة الإلياذة، وقد ترجمها عن اليونانية شعراً محققاً إنجازاً أدبياً يمكن النظر اليه على أنه إبداع قبل أن يكون ترجمة، وقد صدرت (١٩٠٤) عن دار الهلال،

وأقيم له فى مصر فى نهاية ذلك العام حفل تكريم بمناسبة صدورها، بفندق شبرد فى ١٤ يونيو ١٩٠٤ .

وكتب الشيخ محمد عبده الى البستانى قائلًا :

« تمت لك ترجمة « الألياذة» . ونسجت قريحتك ديباجة ذلك الكتاب، فإذا هو ميدان غزت فيه لغتنا العربية ضريعتها اليونانية فسبت خرائدها وغنمت فرائدها ... ».

ولسليمان البستانى دراسات أخرى عن أطوار الشعر العربى أو طبقات الشعراء، وتاريخ العرب، وله أيضا رسالة فى الاختزال العربى.

وبالإضافة إلى هذا فقد كتب سليمان البستانى مؤلفا عن سياحته فى العالم حتى ١٩٠٨ .

(٨)

يُروى أن الذى شجعه على ترجمة الإلياذة هو د. يعقوب صروف وذلك في أثناء زيارته لمجلة المقتطف بالقاهرة سنة ١٨٨٧ لمراجعة إحدى مقالاته، وأنه اطلع على ترجمة الإلياذة باللغات الإنجليزية والفرنسية والإبطالية، ثم قام بتعريبها شعرا. وأهداها إلى والده.

كتب سليمان البستانى مقدمة تعريفية مطولة للملحمة تعد كتابا قائما بذاته عن تاريخ الأدب عند العرب وغيرهم. ويرى الكثيرون نقاد الأدب ومؤرخيه أن هذه المقدمة من أفضل ما كتب فى الموضوع وأنها وحدها كافية لتخليد اسم سليمان البستانى.

(٩)

طبعت ترجمته فى ١٢٦٠ صفحة تشمل المقدمة التى أشرنا لتونا إلى قيمتها، وقد جاءت وحدها فى ٢٠٠ صفحة وقد تناول فيها هوميروس وشعره وآداب اليونان والعرب وقصة ترجمته للإلياذة والأسس التى اتبعها.

وبعد الترجمة يأتى معجم عام للإلياذة وفهارس وملحق.

(١٠)

قد يكون من المستحسن أن نلخص رأى سليمان البستانى فى الأسباب التى منعت العرب من ترجمة الإلياذة شعراً.

فالسبب الأول فى نظره أن العرب لم يكادوا يخرجون من بلادهم «حتى ملكوا الأمصار وانتشروا فى سائر الأقطار وأسسوا الممالك الكبار» وبدت لهم الحاجة إلى استخراج كتب العلم، فعنوا بالطب وعلم المنطق.

والسبب الثانى هو أن العرب لم يكونوا يرون أنه من الممكن أن يوجد «شعر أعجمى يجارى قصائدهم بلاغة وانسجاماً ودقة وإحكاماً».

(١١)

ثم يذكر سليمان البستانى، السبب الثالث، وهو أن المترجمين والمعربين الذين كانوا يعملون فى العصور الأولى فى كنف الخلفاء «لم يكونوا عرباً، وإن تفقهوا بالعربية على أساتذتهم، فلم يكن يسهل عليهم نظم الشعر العربى.

يضاف إلى هذا كله سبب رابع هو «أن شعراء العرب أنفسهم لم يكونوا يحسنون فهم اليونانية، فلم يكن بينهم من يصلح لتلك المهمة».

حريّ بنا أن نتذكر أن سليمان البستانى حرص على أن ينقل الملحمة اليونانية إلى العربية شعراً. فهو لم يكن يؤمن بأن نقل الملحمة إلى العربية نثراً عمل أدبى «صحيح»، ولو أنه «واقعى» فى بعض الحالات. فالشاهنامة للفردوس نقلت نثراً إلى العربية لكنها لم ترج على أنها أدب بل استعملت على أنها مصدر تاريخى أسطورى.

(١٢)

حافظ سليمان البستانى فى ترجمته على الأصل المترجم لفظاً ومعناً وروحاً، فلم يختصر ولم يقصر ولم يحذف. وقد تعلم اليونانية كى يتمكن من الغوص على المعانى الأصلية. فسليمان

البستانى لم ينقل الإلياذة عن لغة أجنبية أخرى وسيطة وإنما نقلها عن اليونانية مباشرة، وإن كان قد قرأ الكثير من الترجمات الإنجليزية والفرنسية.

(١٣)

لجأ سليمان البستاني إلى طريقة ذكية في التعامل مع النص المترجم في القافية والعروض العربيين، فقد درس بحور الشعر العربى وقابل بنيتها وموسيقاها بأبواب الشعر ومضمونه ودفعه هذا إلى أن يلجأ إلى التنويع فى استعمال هذه البحور عند الترجمة، مع صرف النظر عن المطابقة بين الشعر فى العربية وما يقابله باليونانية. وهكذا جاءت محاولته عملية أو براجماتية فريدة فى الاختيار بين البحور: فالطويل على سبيل المثال مناسب للفخر والحماسة والتشابيه والاستعارات وسرد الحوادث، والبحر البسيط يفوق الأول رقة وجزالة..... إلخ.

والإلياذة مع هذا كله في رأي البستاني حمّالة معان وأحداث وتشابيه ورقة وجزالة، وهكذا كانت البحور المتنوعة أوعية جيدة للمعانى المتنوعة.

(١٥)

لم يشتهر لسليمان البستانى شعر كثير فقد غطت الإلياذة على كل مكان ما كان يحتمل أن ينال حظه فيه:

ومن شعره هذان البيتان عربهما عن الفارسية:

قضيت إلهى بالعذاب ويـــا ترى بأى مكان بالعذاب تدين

فليس عذاب حيثما أنت كائن وأى مكـــان لست فيه يكون

الفصل الثانى عشر

فارس نمر

١٨٥٦- ١٩٥١

(١)

على الرغم من الشهرة التى عرف بها باسمه الثنائى فإن المراجع المعاصرة له تذكر اسمه: فارس بن نمر بن فارس أبى ناعسة.

ولد فارس نمر فى بلدة حاصبيا التابعة لولاية سوريا (من ولايات الدولة العثمانية) فى يناير ١٨٥٦، وفى بعض المصادر أنه ولد عام ١٨٥٥، وفى الحالين فقد كان أكبر أعضاء مجمع اللغة العربية سناً، وقد احتفظ بهذه الصفة منذ نشأة المجمع وحتى وفاته هو، فقد عين فى الفوج الاول عقب تأسيس المجمع (١٩٣٣)، وبهذه الصفة كان يرأس المجمع فى حال غياب الرئيس تبعاً للقانون.

هو رائد بارز من رواد الصحافة العلمية والسياسية فى العالم العربى، وواحد من اثنين أسسا مجلة «المقتطف» فى بيروت ثم القاهرة، وواحد من ثلاثة أسسوا جريدة «المقطم» فى القاهرة.

كانت حياته حافلة بالاجتهاد فى ميادين اللغة والأدب، والنشاط السياسى، والإصلاح الاجتماعى والمطالبة بالحرية فى مواجهة العثمانيين (!!) لا فى مواجهة الإنجليز (!!) الذين كانوا يحظون بتأييده وتبعيته وولاءه صراحة، وعاشت جريدته «المقطم» تؤيد سياسة الاحتلال البريطانى على الدوام، وقد تعرضت على الدوام لغضب الشعب والقوى الوطنية، وانتهى أمرها إلى الزوال عقب قيام ثورة ١٩٥٢.

صادف فارس نمر طفولة صعبة ربما شكلت وعيه وعقيدته السياسية بعد هذا، فبعد حوالى خمس سنين من ولادته حدثت المذابح المعروفة بمذابح سنة ١٨٦٠ فى سوريا، وكانت

بلدته حاصبيا إحدى البلاد التى عمتها تلك المصائب وفيها قتل والده، فحملته أمه مع أخيه نقولا وأخته مريم إلى مدينة بيروت حيث اتخذتها سكنا، ولما بلغ منتصف السادسة ألحقته والدته بالمدرسة الإنجليزية لتلقى التعليم، وقد تربى على طريقة هذه المدارس فى مثل سنه، وفى نهاية السنة الأولى من دراسته اختير للحديث فى الاحتفال السنوى فألقى خطبة أعجب بها الحضور، ولفت نظرهم إلى موهبته وقدراته، وهكذا أتيح له فيما تلا ذلك من العمر أن يعتمد على هذه السمعة المبكرة.

(٢)

وفى أواخر سنة ١٨٦٣ انتقل مع والدته إلى مدينة القدس الشريف وألحق فيها بالمدرسة الصهيونية الإنجليزية (ولم تكن الصفة الصهيونية فى ذلك الوقت قد أصبحت ذات دلالة على عداوة صريحة) فبقى بها خمسة أعوام تعلم فى أثنائها الإنجليزية والألمانية ومبادئ التاريخ والحساب.

ثم عاد إلى بيروت والتحق (أواخر ١٨٦٨) بمدرسة «عبية» فى لبنان وفيها تلقى مبادئ علوم اللغة العربية والصرف والنحو، ولم يطل به المقام فى هذه المدرسة أكثر من أربعة أشهر فتركها وعاد إلى حاصبيا مسقط رأسه حيث أصيب بالحمى، وبعد سنة عاد إلى بيروت حيث كانت والدته قد عادت إليها وعمل موظفاً بسيطاً فى مخزن تجارى .

وسرعان ما ترك هذا العمل لطموحه إلى استكمال تعليمه والتحق بالمدرسة الكلية السورية، (الجامعة الأمريكية فيما بعد) وأظهر عناية كبيرة بدراسته كما ظهر نشاطه خارج المدرسة أيضا، وكان فى مقدمة مؤسسى «جمعية شمس البر» الشهيرة فى بيروت، وفى هذه الجمعية ألقى كثيرا من الخطب التى أسهمت فى اتساع شهرته فى بيروت.

وقد ازداد رصيد شهرته كخطيب لا يبارى، ولم تكن موهبته الصحفية قد ظهرت بعد. وقد أتيح له فى هذا الوقت المبكر أن يدّرس فى مدرسة البنات البروسية العالية، وأن يتولى ترجمة بعض الكتب الدينية والتاريخية والعلمية، وقد صدرت هذه الترجمات فى مجلة «النشرة الأسبوعية».

(٣)

نال فارس نمر شهادة البكالوريا (١٨٧٤) فى زمن مبكر، وعين بهذه الشهادة معاونا لأستاذه الدكتور فان ديك فى إدارة المرصد الفلكى فى بيروت، كما عين معلما لعلمى الجبر والهيئة فى المدرسة، كما اختير أيضا لتدريس اللغة الإنجليزية فى المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك وقد مكنته إجادته للعلوم والدراسات المختلفة أن يعين مدرسا للعربية وآدابها واللاتينية، كما عين بعد ذلك مدرسا للرياضيات العليا والهيئة والظواهر الجوية، وبهذا عرف كمعلم كفء وقادر على من تدريس كافة اللغات والعلوم (تقريبا) باقتدار.

وكان الجمع بين مثل هذه الوظائف في ذلك الوقت ميسراً بل أمراً طبيعياً فى ذلك الوقت، وفى هذه الفترة ترجم كتاب «الظواهر الجوية» للأستاذ لومس (١٨٧٦) وطبع الكتاب فى مطبعة الأمريكان فى بيروت.

وبعد عامين فقط من نواله شهادة البكالوريا بدأ أولى خطوات مجده الصحفى حيث أنشأ (١٨٧٦) بالاشتراك مع صديقه يعقوب صروف مجلة «المقتطف» التى كانت من أبرز المجلات العلمية العربية والتى تحولت مع مضى الزمن إلى رائدة لهذه المجلات، وقد ظلت لفترة طويلة بمثابة المصدر الرئيسى للثقافة العلمية والحديث عن الاكتشافات والمخترعات الجديدة،

(٤)

وبعد ست سنوات من إصداره «المقتطف» اشترك مع عدد من زملائه وأقرانه فى إنشاء مجمع لغوى علمى رائد هو «المجمع العلمى الشرقي» فى بيروت، وهو واحد من إرهاصات المجامع اللغوية التى تأسست فيما بعد، وقد شاركه فى تأسيسه مجموعة من أعلام الفكر كان منهم أستاذه الدكتور كرنيليوس فان ديك (الذى كان رئيسا له فى عمله فى المرصد) والدكتور يعقوب صروف (شريكه فى إصدار المقتطف) والدكتور بشارة زلزل (أحد رواد الصحافة العلمية) وجورجى بك زيدان (مؤسس دار الهلال)، وقد ألقى هو خطاب افتتاح هذا المجمع واختار له عنوان: «علم الهيئة القديم والحديث»، وقد نُشرت كلمته فى «المقتطف» كما نشرت فى سجل أعمال ذلك المجمع.

(٥)

وفى ١٨٨٣ عين فارس نمر مديرا للمرصد الفلكى والميتورولوجى بعد استقالة مديره الدكتور فان ديك، وبقى مديراً له لأكثر من عام، ثم ترك العمل فى المرصد والمدرسة الكلية السورية وهاجر إلى مصر، وذلك فى أواخر عام ١٨٨٤، ويروى أن السفينة التى أقلته أقلت معه كلا من يعقوب صروف، وإلياس زاخورا صاحب «مرآة العصر»، وفى العام التالى (١٨٨٥) أعلن عن انتقال مجلة «المقتطف» إلى مصر وصارت تصدر من القاهرة، وقد لقى ترحيبا كبيرا من وجوه الحياة السياسية المصرية بهذه الخطوة حتى إن رئيسى الوزراء شريف باشا ورياض باشا كتبا له يرحبان به وبنشاطه فى القاهرة، ويثنيان على جهوده فى نشر الثقافة العلمية، وكان هذا متسقاً مع مناخ النهضة الذى كان سائداً فى مصر على الرغم من وقوعها تحت نير الاحتلال الإنجليزى.

وفى رسالة تشجيع وترحيب بانتقال صدور «المقتطف» إلى القاهرة كتب له رئيس الوزراء محمد شريف باشا:

«... لما كان المقتطف خير ذريعة لنشر المعارف بين المتكلمين بالعربية فلا عجب إذا نال ما نال من رفعة المقام فى اعتبار الخاصة والعامة معا، وقد بلغنى فى هذه الأثناء خبر نقله إلى القطر المصرى بعدما خبرته وخبرت معارفكم زمانا، فاستحسنت أن أبدى مسرتى بذلك لما فيه من الفوائد التى لا تستغنى عنها البلاد، ولاريب عندى أن عقلاء مصر ونبهائها لا يغفلون عن تعميم فوائده، ولا يتقاعدون عن السعى لنشر علومه بينهم».

■

وهذه أيضًا فقرات من ترحيب رئيس الوزراء مصطفى رياض باشا بصدور «المقتطف» فى القاهرة:

«... للمقتطف عندى منزلة رفيعة، وقد ولعت بمطالعته منذ صدوره إلى اليوم، فوجدت فوائده تتزايد، وقيمته تعلو فى عيون عقلاء القوم وكبرائهم، ولطالما عددته جليسا أنيسا أيام الفراغ والاعتزال ونديما فريدا لا تنفد جعبة أخباره، ولا تنتهى جدد فرائده، سواء كان فى العلم والفلسفة، أو فى الصناعة والزراعة التى عثرت فيها على فوائد لا تثمن، هذا علاوة على ما فيه

من المباحث الآيلة (يقصد الهادفة) إلى تهذيب العقول، وجلاء الأذهان، وتفكيه القراء، فلذلك ترحب مصر بالمقتطف الأغر، وتحله محل الكرام الذين اشتهر فضلهم وعمت فواضلهم».

(٦)

وبعد سنتين من هجرته إلى القاهرة أنشأ فارس نمر بمساعدة بعض أصدقائه «جمعية الاعتدال» (١٨٨٧)، ويبدو أن علاقته بالبريطانيين سرعان ما توثقت على أكثر من مستوى وفى أكثر من مجال، فقد انتخب عضوا فى مجمع بريطانيا الفلسفى، واقترن بكريمة القنصل البريطانى السابق فى الإسكندرية (فى ١٨ تموز ١٨٨٨)، وسافر هو وزوجته إلى سوريا لقضاء الصيف فى لبنان، وفى أواخر الصيف عاد إلى مصر.

(٧)

وفى ١٨٨٩ (أى بعد خمس سنوات من هجرته إلى مصر) خطا أكبر خطوات حياته الصحفية حيث أنشأ مع زميليه الدكتور يعقوب صروف وشاهين بك مكاريوس جريدة «المقطم»، وقد أعلن منذ بداية أعدادها عن ميلها الصريح للتعاون مع البريطانيين، وعن ترحيبها بسياستهم، وعن دفاعها عن توجهاتهم، ولم يكن من الصعب تقبل (وإن يكن التقبل على مضض) وجود مثل هذه الصحيفة بهذا التوجه فى ظل سطوة الاحتلال، وتصريح البعض بما يرونه من مزايا حكم الإنجليز!! وعدالتهم إذا ما قورنوا بغيرهم.

ومنذ إنشاء جريدة «المقطم» تفرغ فارس نمر لتحريرها والعناية بها، ومع هذا فإنه لم ينقطع عن إسهامه فى تحرير مجلة «المقتطف» من حين لآخر، وقد احتفظت جريدة المقطم بمكانة متقدمة بين الصحف العربية، ومع أن الأداء المهنى لفارس نمر وزملائه كان متميزا، إلا أن السبب فى هذا النجاح كان راجعاً فى المقام الأول إلى الدعم البريطانى الدائب لهذه الصحيفة التى عرفت طيلة عهدها على أنها لسان حال الاحتلال البريطانى.

(٨)

كان فارس نمر معنيا بتقوية علاقاته وصلاته الدولية، وقد منح درجة الدكتوراه فى الفلسفة من مدرسة نيويورك (١٨٩٠)، كما زار عواصم أوروبا فى السنة نفسها حيث زار لندن والتقى

بكبار السياسيين فيها، وقد رحبت الجرائد الإنجليزية بزيارته، ثم زار أوروبا مرات عديدة، كما سافر (١٩٠٠) لزيارة معرض باريس.

وقد ساعده نجاح المقطم على أن ينشئ جريدة «السودان» (١٩٠٣) باللغتين العربية والإنجليزية فى مدينة الخرطوم، وكانت تصدر فى ست صفحات كبيرة كما كانت تبحث فى جميع الشئون التى تخص البلاد السودانية، لاسيما الزراعة والتجارة، وكانت أيضاً لسان حال الإنجليز.

(٩)

ظل فارس نمر يدير نشاطه من القاهرة، فلما أعلن الدستور العثمانى عاد إلى بيروت (١٩١١) بعد غيابه عنها ستا وعشرين سنة، وكان قبل إعلان الدستور فى الدولة العثمانية لا يستطيع الرجوع إلى وطنه، فاحتفل العلماء والأصدقاء بقدومه وأقامت له المدرسة الكلية السورية حفلة خاصة فى ناديها إكراما له وقد تعلم وعلّم فيها.

(١٠)

كان فارس نمر نموذجا للذين أخلصوا للغة العربية على الرغم من اختلافهم الجذرى مع الوطنيين فيما يتعلق بالحركة الوطنية المصرية، وقد كان من الذين بذلوا حياتهم فى خدمة اللغة العربية وجعلها قادرة على التعبير عن حاجات العصر ومطالبه، ومقالاته وترجماته خير شاهد على ذلك، ولهذا اختارته المجامع اللغوية عضوا بها، فاختير لعضوية المجمع اللغوى المصرى المبكر الذى أنشيء سنة ١٩١٦، وعندما أنشئ مجمع اللغة العربية (١٩٣٢) حرصت الدولة من أول يوم على أن يكون فارس نمر أحد أعضائه، كما اختاره المجمع العلمى العربى عضوا مراسلا.

وفى مجمع اللغة العربية كان له نشاط كبير، وقد تقدم ببعض المقترحات الذكية مثل جمع الألفاظ التى لم ترد لها جموع، وصوغ جموع لها على القواعد التى أقرها المجمع ونشرها.

وقد اشترك فى أنشطة عدة لجان كان منها: لجنة الرياضيات، ولجنة العلوم الطبيعية والكيميائية، ولجنة الأصول، ولجنة اللهجات ونشر النصوص.

(١١)

ترجم فارس نمر بالاشتراك مع زميله الدكتور يعقوب صروف كتاب «سير الأبطال والعظماء» وكتاب «مشاهير العلماء وغيرهما»، كما ترجم من قبل: «الظواهر الجوية» عن الإنجليزية.

(١٢)

وقد ظل المناخ الليبرالى فى مصر قادراً على أن يذكر لفارس نمر فضله فى ميادين اللغة والأدب حتى مع التحفظ على توجهاته السياسية، وعلى سبيل المثال فقد أقام مجمع اللغة العربية حفلاً لتأبينه، وكلف الأستاذ أحمد أمين بإلقاء كلمة المجمع فى هذا التأبين الذى صادف يوم حريق القاهرة (٢٦ يناير ١٩٥٢).

ومما قاله الأستاذ أحمد أمين فى تأبينه:

«فحياته العلمية، من غير شك، حياة مملوءة بالجد، والصدق، والإخلاص للمبدأ، وقد اختير عضوا بالمجمع اللغوى فى مصر منذ أول إنشائه، وحياته فيه تستدعى الإعجاب: محافظة على الحضور فى الموعد، واشتراك فى الأعمال، وما أعجبه إذا كنت تراه فى المجمع، وقد بلغ نحو المائة، يدخل فيجلس مكانه المعتاد ويضع النفير على أذنه ليسمع حتى لا تفوته منه كلمة، ويضع المنظار المكبر على عينه، ثم هو يدقق فى كل كلمة يقرؤها أو يسمعها».

(١٣)

نال فارس نمر كثيراً من التكريم، وقد نال مبكرا وسام المعارف الذهبى من جلالة أوسكار ملك أسوج ونروج (السويد والنرويج) بصفته رئيس المؤتمر الدولى الثامن للمستشرقين، وقد حياه المستشرق الكونت دى لاندبرج قنصل السويد فى مصر بقوله:

«... وقد رأينا من آثاركم العلمية على تنوع مواضيعها ما تقصر عنه عبارات البلغاء لو عمدوا إلى بيانه، فلذلك طلبنا إلى جلالة مولانا الملك أوسكار بلسان الرجاء أن ينظر إلى جنابكم بعين لا ترى منه غير عضو من جسم الهيئة العلمية، فوقع الطلب موقع القبول، إذ أنعمت الحضرة الملكية على الجناب بوسام ذهبى (ميداليا) لا يحمله إلا رجال الفنون والصناعات العالية، وسنقدم إلى مصر به عما قريب فيزدان بصدر الجناب: لازال فى المجالس صدرا وفى المطالع بدرا».

الفصل الثالث عشر

جورجي زيدان
١٨٦١ - ١٩١٤

(١)

جورجى زيدان (على الرغم من كل التحفظات التقليدية عليه وعلى أعماله) رائد من رواد الثقافة العربية المعاصرة، ومن رواد الصحافة الثقافية أيضا، كان من الموسوعيين العرب المؤسسين للنهضة الحديثة، وقد كان بلا جدال أول عربى صاحب قلم معروف يعالج كثيراً من فنون الأدب، وكانت بعض كتبه أول ما ألف بالعربية فى موضوعاتها، وهو واحد من المعلمين الأوائل للعرب المحدثين، وقد لا يصدقنى كثيرون فيما أزعمه من أن جهوده كانت صاحبة الفضل الأكبر فى توجه دراسات تاريخ الأدب العربى إلى الصورة التى صارت عليهامن الأصالة والانحياز للاسلام حتى وإن كانت هذه الدراسات مختلفة تماما (فيما انتهت إليه) لأسلوب چورچي زيدان واستناجاته .

من الطريف أنه كان شريكا لمترى صاحب المعارف كما أنه كان مديرا للمقتطف التى أسسها أصحاب المقتطف والمقطم. وبهذا فانه كان واسطة العقد فى ثلاثية صحفية شملت دور الهلال (والمقتطف والمقطم) ودار المعارف.

(٢)

يعود أصل عائلته إلى حوران.

ولد جورجى زيدان فى بيروت فى ١٤ من ديسمبر ١٨٦١ لأسرة مسيحية فقيرة، كان عائلها رجلاً أميا يملك مطعمًا صغيرًا يتردد عليه بعض رجال الأدب واللغة.

ولما بلغ الخامسة أرسله أبوه إلى مدرسة متواضعة ليتعلم القراءة والكتابة والحساب، حتى يستطيع مساعدته فى إدارة المطعم وضبط حساباته، ثم التحق بمدرسة الشوام فتعلم بها الفرنسية، ثم تركها بعد فترة والتحق بمدرسة مسائية تعلم فيها الإنجليزية.

ولم ينتظم جورجى فى المدارس، فتركها وعمل فى مطعم والده، لكن والدته كرهت له العمل بالمطعم، فاتجه إلى تعلم صناعة الأحذية وهو فى الثانية عشرة ومارسها عامين ثم عدل عنها .

هكذا أتيح لجورجى زيدان فى صباه تعلم اللغات وممارسة الهوايات والصناعات والخبرة بالتجارة والأعمال الحرة، لكنه فيما بدا كان مفطورا على حب القراءة،والاطلاع؛ والمعرفة، والأدب، كما كان مولعا فى صباه بالرسم والتصوير و كان على صلة مباشرة ويومية بالثقافة حيث كان يقرأ الكتب والمجلات بنهم شديد، وتوثقت علاقاته بالأدباء ورجال الفكر وخريجى الكلية الأمريكية ببيروت من الذين كانوا يترددون على مطعم والده، وتوثقت صلته بعدد كبير منهم، ومن رجال الصحافة وأهل اللغة والأدب من أمثال يعقوب صروف، وفارس نمر، وسليم البستانى وغيرهم، وكانوا يدعونه إلى المشاركة فى الاحتفالات الكلية، كما توثقت علاقته باعلام آخرين من خلال جمعية شمس البر الأدبية فى بيروت.

(٣)

تطلع جورجى زيدان إلى إكمال تعليمه، فترك العمل اليدوى سنة ١٨٨١ وانكب على التحصيل والمطالعة، وتقدم (١٨٨١) ليلتحق بكلية الطب ببيروت فتحقق له ذلك بعد اجتيازه اختبارا فى بعض المواد العلمية التى نجح فى الإلمام بها فى ثلاثة أشهر، وأصبح طالبا بمدرسة الطب، وقضى فيها سنة كاملة لكنه عانى من اضطراب أحوال المدرسة فى تلك الفترة فتقدم لامتحان فى العلوم الصيدلية واجتاز بعض مواده بنجاح.

(٤)

ثم كانت نقطة التحول العملية الأولى فى حياة جورجى زيدان ما حدث من هجرته إلى القاهرة ليتم بها دراسة الطب، ولم يكن معه ما يكفى نفقات السفر، فاقترضها، وقد سافر إلى

الإسكندرية (١٨٨٣) على ظهر سفينة تجارية وتصادف أن وصل إليها بعد فشل الثورة العرابية وبدء الاحتلال الإنجليزى.

ولما وصل القاهرة (أكتوبر ١٨٨٣م) صرف عزمه عن الالتحاق بمدرسة الطب لطول مدة الدراسة، وأخذ يبحث عن عمل، فعمل محررا فى صحيفة «الزمان» اليومية التى كان يملكها ويديرها أرمنى يدعى «علكسان صرافيان». وكانت صحيفة الزمان بمثابة الجريدة اليومية الوحيدة فى القاهرة بعد أن عطل الاحتلال الإنجليزى صحافة ذلك العهد.

ثم كان من حظه ان عُيّن مترجما فى مكتب المخابرات البريطانية بالقاهرة (١٨٨٤)، ورافق الحملة الإنجليزية النيلية التى توجهت إلى السودان لإنقاذ القائد الإنجليزى «غوردون» من حصار المهدى وجيوشه، ودامت رحلته فى السودان عشرة أشهر عاد بعدها إلى بيروت (١٨٨٥).

(٥)

عاد جورجى زيدان إلى بيروت وألف أول كتاب له وهو «الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية»، ومكنه هذا الكتاب من أن يصبح عضوا منتخبا فى المجمع العلمى الشرقى (١٨٨٥)، وكان هذا المجمع قد أنشئ فى سنة (١٨٨٢) لترقية وتوظيف العلوم والصناعات.

وتشير الروايات إلى أن هذه الفترة شهدت بدء دراسته للغات الشرقية وتعلم اللغتين العبرية والسريانية، وهو ما مكّنه من تأليف هذا الكتاب الذى ظنه أو صورّه على أنه بمثابة «فلسفة اللغة العربية»، وقد أعاد هو نفسه النظر فى هذا الكتاب مرة أخرى، فى طبعة جديدة أصدرها بعد ذلك بفترة طويلة (١٩٠٤م) بعنوان «تاريخ اللغة العربية».

(٦)

ثم كان التحول الأهم فى حياته فى صيف ١٨٨٦ حيث سافر إلى لندن و زار المتحف البريطانى و مكتبات لندن ومتاحفها، ومجامعها العلمية، وبدأ ما استمر بهذا من صلته الروحية بالبريطانيين، وراودته فكرة تأليف «تاريخ آداب اللغة العربية»، وعاد فى السنة نفسها إلى القاهرة. وفى أثناء ذلك بدأ وضع نشركتبه الأولى وكانت فى التاريخ: «تاريخ مصر الحديث» جزأين. «تاريخ الماسونية العام» (١٨٨٩)، كما كتب فى هذه الفترة أولى رواياته «المملوك الشارد».

ومن الجدير بالذكر أن جورجى زيدان كان قد اعتنق الماسونية (١٨٩٢)، وظل على ولائه لها، ولا يزال كتابه عنها بمثابة المرجع الذى نقل عنه كل مَنْ تناولوا تاريخ الماسونية.

وعقب عودته من لندن تولى جورجى زيدان إدارة مجلة المقتطف، عاما ونصف العام (١٨٨٦ ـ ١٨٨٨)، وقد قدم استقالته من المجلة سنة (١٨٨٨) ليشتغل بتدريس اللغة العربية بالمدرسة «العبيدية الكبرى» للروم الأرثوذكس (١٨٨٩).

وسرعان ما ترك جورجى زيدان التدريس بعد عامين،ليشترك سنة (١٨٩١) مع «نجيب متري» فى إنشاء مطبعة، وكان هذا هو التحول الأخير والأهم، والأكبر فى حياته. ولم تستمر الشركة بينهما سوى عام، انفضت بعده واحتفظ جورجى زيدان بالمطبعة لنفسه، وأسماها مطبعة الهلال، على حين قام نجيب مترى بإنشاء مطبعة مستقلة باسم مطبعة المعارف. وهكذا كان صاحبى دار المعارف ودار الهلال المؤممتين على يد جمال عبد الناصر (فيما بعد في ١٩٦٠) شريكين عصاميين.

(٧)

منذ ذلك الحين بدأت مرحلة الاستقرار فى حياة جورجى زيدان، وأصبح صاحب مؤسسة فى القاهرة، وتزوج (١٨٩١) وأنجب أبناءه إميل (١٨٩٣) وأسماء (١٨٩٥) وشكرى (١٩٠٠).

أصدر جورجى زيدان فى سنة (١٨٩٢) مجلة الهلال، وكان يقوم بتحريرها بنفسه، إلى أن كبر ولده «إميل» وصار مساعده فى تحريرها

وقد كان إصداره مجلة «الهلال» (سبتمبر ١٨٩٢) هو أبرز أعماله الصحفية، وقد ظل يشرف على تحريرها وإدارتها بنفسه، وكان شقيقه مترى زيدان يساعده فى إدارة المطبعة، بينما كان شقيقه الآخر إبراهيم يساعده فى إدارة المكتبة إلى أن كبر ابنه إميل فساعده فى تحرير مجلة الهلال، كما أصدر هذا الابن مجلة «المصور» بمعونة شقيقه شكرى الابن الثانى لجورجى زيدان.

وقد صدر العدد الأول من مجلة الهلال فى ربيع أول ١٣١٠هـ = ١٨٩٢م بافتتاحية بقلم جورجى زيدان نفسه أوضح فيها خطته، وغايته من إصدارها وكان من الواضح أنه حريص على الظهور بمظهر المجاملة والولاء للمجتمع الإسلامى الذى وجد فيه، فاسم المجلة واسم المطبعة هو «الهلال» الرمز الإسلامى، كما أن المجلة بدأت الصدور فى ربيع الأول الذى هو شهر ميلاد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

وقد عكف جورجي زيدان على تحرير المجلة بنشاط لفت إليه الأنظار، وكان ينشر فيها كتبه على هيئة فصول متفرقة، وقد لقيت المجلة قبولا من الناس، ولم يكد يمضى على صدورها خمس سنوات حتى أصبحت من أوسع المجلات انتشارا، كما مد الله فى عمرها حتى أصبحت أعرق المجلات الثقافية الآن، ورأس تحريرها على مدى حياتها المديدة كبار الكتاب والأدباء، من أمثال: الدكتور أحمد زكى، والدكتور حسين مؤنس.

(٨)

اشتهر جورجى زيدان فى وجدان القراء برواياته التاريخية الشهيرة وعُدّ المؤسس لهذا اللون من الروايات فى العربية وهى روايات تجمع بين التعليم والتسلية والتاريخ الذى تقدمه فى صورة مشرقة ومشوقة، وبلغة جذابة تحمل القراء على متابعة تاريخهم دون مشقة أو ملل وقد بدأها برواية «المملوك الشارد» التى صدرت فى سنة (١٨٩١)، ثم تتابعت رواياته حتى بلغت اثنتين وعشرين رواية تاريخية، فى رأى كثيرين لكنى أميل إلى القول بأنها ثلاث وعشرون رواية تاريخية تدور أحداث سبع عشرة روايةمنها فى فترات من التاريخ الإسلامى و وقائع التاريخ الإسلامى للوطن العربى،، وقد لقيت هذه الروايات رواجا واسعًا وإقبالاً هائلاً، وتُرجمت إلى اللغات الاسلامية باكثر مما ترجمت الى اللغات الاوربية. وقد ترجمت رواياته إلى الفارسية والتركية والأذربيجانية واللغات الإسلامية الآسيوية.

تمثل رواياته التاريخية جهدا رائدا ذا قيمة كبيرة فى حد ذاته، لكنها لا تحظى بتقدير معظم المؤرخين والنقاد على حد سواء، وقد يكون معهم بعض الحق: فالأدباء يرون أن رواياته تتسم بالسطحية، وأنها كتبت فى عجلة شديدة لا تتناسب مع موضوعاتها المهمة. و من ناحية المقاربة والمعالجة فإن أحداث الروايات تكرر تقنية الاعتماد على علاقة غرامية بين بطلى القصة، وتحول الظروف دون التقائهما واجتماعهما، أما شخصيات رواياته فمتشابهة بل نمطية إذ لم يكن يهتم برسم شخصياته. ويأتى فى رواياته ذكر بعض الرموز المسيحية مثل «الدير» بصورة مفتعلة.

ومن حيث المضمون فقد اتجه جورجى زيدان إلى الفترات التى تمثل صراعًا بين مذهبين سياسيين أو كتلتين متصارعتين على السلطة والنفوذ، وكان متأثرًا فى ذلك بنظرة المؤرخين الغربيين وانتقاءاتهم لوقائع تاريخ العالم الإسلامى.

وباختصار شديد فان هذه الروايات لم تسلم من النقد فى الشكل والمضمون وهو فى رأيى نقد لا ينفى الريادة ولا التشويق ولا الذيوع ولا البساطة ولا الحظ أيضًا.

(٩)

سلسلة روايات تاريخ الإسلام

- فتاة غسان.
- أرمانوسة المصرية: قصة فتح مصر على يد عمرو بن العاص.
- عذراء قريش: مقتل عثمان وواقعتي الجمل وصفين.
- ١٧ رمضان: أحداث الفتنة الكبرى ومقتل الامام على بن أبى طالب.
- غادة كربلاء: مقتل الحسين بن على بن أبى طالب.
- الحجاج بن يوسف: الأحوال السياسية فى العصر الأموى.
- فتح الأندلس: قصة فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد.
- شارل وعبد الرحمن: الفتوح الإسلامية في أوروبا.
- أبو مسلم الخراساني: سقوط الخلافة الأموية.
- العباسة أخت الرشيد: أحوال البلاط العباسى فى عهد هارون الرشيد.
- الأمين والمأمون: العصر الذهبى للدولة العباسية.
- عروس فرغانة: الدولة فى عهد المعتصم بالله وعاصمة الخلافة الجديدة سامراء.
- أحمد بن طولون: مصر فى القرن الثالث للهجرة.
- عبد الرحمن الناصر: العصر الذهبى في الأندلس.
- فتاة القيروان.
- صلاح الدين الأيوبي: الحروب الصليبية.

- شجرة الدر.
- الانقلاب العثماني: الأحوال السياسية فى عهد عبد الحميد الثاني.
- أسير المتمهدي: وتحكى قصة الثورة العرابية بقيادة أحمد عرابي ثم ثورة المهدى فى السودان؛ وذلك من خلال أبطال القصة (شفيق) و(فدوى).

أما الروايات التى لا تعد من هذه السلسلة:

- المملوك الشارد.
- استبداد المماليك.
- بيت القصيد.
- جهاد المحبين.

(١٠)

أما كتابه «تراجم مشاهير الشرق» فهو كتاب فى التراجم لا يزال يعد من أهم المراجع التى يستأنس بها كل باحث وكاتب يبحث عن الترجمة لعلم من أعلام الشرق فى القرن التاسع عشر، والكتاب لا يختص بطائفة معينة من الناس، وإنما يجمع بين أعلام السياسة والأدب والإدارة والحكم وغيرهم.

(١١)

أما أهم أعمال جورجى زيدان التاريخية فهو كتاب «تاريخ التمدن الإسلامي» الذى صدر فى خمسة أجزاء على مدى خمسة أعوام (١٩٠٢ – ١٩٠٦م)، وقد أفاد فيه الرجل من قراءاته ودراساته فى المؤلفات الغربية، ومناهج التأليف فى التاريخ والحضارة، فضلاً عن مطالعاته الواسعة فى المصادر العربية، وظهر فى وقت كان من يكتبون فى تاريخ الإسلام لايزالون يتبعون منهج رواة المسلمين القدامى، مثلما هو الحال فى كتابات الشيخ «محمد الخضري»، بعيدا عن مهارات وتنظيمات مدرسة الاستشراق فى المناهج وبعيدا عنها أيضا فيما نشرت من المفتريات والخباثات .

وقد لقى هذا الكتاب «تاريخ التمدن الإسلامى إقبال القراء، وكانت الجامعة المصرية قد قامت واستفطبت قاعاتها لطلاب، فانتبهت إلى مكانة جورجى زيدان وسعة علمه، فدعته إلى إلقاء سلسلة من المحاضرات فى التاريخ الإسلامى، لكن حالت الظروف دون القيام بهذا العمل فى الجامعة.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات شرقية، كما ترجم المستشرق الإنجليزى «مارجليوث» الجزء الرابع منه إلى الإنجليزية، وعده عملاً أصيلاً غير مسبوق.

وهذه قائمة أعماله فى التاريخ:

- تاريخ التمدّن الإسلامي- خمسة أجزاء -طبع فى مصر ١٩٠٢-١٩٠٦.
- تاريخ مصر الحديث -جزآن- طُبع فى مصر ١٨٨٩.
- تاريخ العرب قبل الإسلام -الجزء الأول، طُبع فى مصر سنة ١٩٠٨.
- تاريخ الماسونية العام . مطبعة الهلال .

و له أيضًا مؤلفاته تاريخية مبكرة لا تثبت أسماءها كثير من الببليوجرافيات المنشورة عنه،

- تاريخ إنجلترا
- تاريخ اليونان والرومان
- جغرافية مصر

وله ايضا:

- «أنساب العرب القدماء»،
- «علم الفراسة الحديث»،
- «طبقات الأمم وعجائب الخلق».
- «مصر العثمانية» وهو من مؤلفاته التى نشرت بعد وفاته.

غير أن هذه الكتب كما نعرف لم تلفت إليها الأنظار.

(١٢)

ونعود إلى كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» الذى صدر فى أربعة أجزاء على مدى أربع سنوات (١٩١١ - ١٩١٤) الذي لايزال من المراجع للمشتغلين بتاريخ الأدب العربى فى عصوره المختلفة، وكانت فكرة تأليف هذا الكتاب قد شغلته كما نعرف منذ وقت مبكر، فنشر فصولاً فى مجلة الهلال سنة (١٨٩٤م) تحت هذا العنوان، ثم وسّع هذه الفصول حتى جعل منها كتابًا مستقلاً.

وقد تأثر جورجى زيدان كثيرًا بمنهج المستشرقين وكتاباتهم فى دراسة تاريخ الآداب العربية، وبخاصة كتاب بروكلمان المستشرق الألمانى فى كتاب «الأدب العربي» وغيره من مؤلفات المستشرقين، وهو لم ينكر هذا بل إنه وضع فى الصفحات الأولى من كتابه أسماء المراجع الفرنسية والإنجليزية والألمانية التى رجع إليها ونهل منها.

وهذه قائمة أعماله الأخرى فى اللغة وآدابها:

- الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية، بيروت ١٨٨٩.
- اللغة العربية كائن حى، بيروت ١٩٨٨، طبعة ثانية
- «تاريخ اللغة العربية».

(١٣)

كان جورجى زيدان متمكنا من اللغتين الإنجليزية والفرنسية إلى جانب اللغة العربية، واسع الاطلاع بهما، وبخاصة فيما يتصل بالتاريخ والأدب العربيين وكانت له علاقات طيبة وشخصية بعدد من المستشرقين.

قد نال جورجى زيدان كثيرا من التقدير والتكريم ومنح أوسمة رفيعة من تونس وانجلترا ولبنان،.وحظى بكتابات كثيرة أهمها بلا جدال هو كتاب الاستاذ محمد عبد الغنى حسن: جورجى زيدان، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠.

كان جورجى زيدان يعمل بانتظام شديد، وبعزيمة قوية، ظل يكتب وينشر كتبه مواصلا القراءة والكتابة ست عشرة ساعة متوالية فى اليوم، مكتفيًا من النوم بأربع ساعات فى أخريات حياته، وكان يسابق الزمن فى إنجاز أعماله الضخمة،

ووافته المنية وهو بين كتبه وأوراقه فى مساء يوم الثلاثاء الموافق (٢٧ من شعبان ١٣٣٢هـ = ٢١ من يوليو ١٩١٤م)، ورثاه أمير الشعراء أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وخليل مطران. وغيرهم، وقد أقيمت له حفلتا تأبين في مصر و زحلة.

كتب للمؤلف (قائمة مرتبة أبجديا)

- آراء حرة في التربية و التعليم
- آفاق الطب الإسلامي : رؤية علمية وتاريخ فلسفي
- أحلام اليقظة : الصراع الاجتماعي في ثورة يناير
- أحمد زكي : حياته و فكره و أدبه *
- أدباء التنوير و التأريخ الإسلامي
- إسماعيل صدقي باشا
- إشراقات الربيع العربي : استعراض تاريخي لصعود فكرة الثورة
- أصحاب المشيختين : سيرة من جمعوا بين المشيخة والافتاء
- أصداء ثورات الربيع : قياسات معيارية للموجات الثورية
- أقوى من السلطة : مذكرات أساتذة الطب
- الأخسرون أعمالا: الاقتصاد والفساد في مصر
- الأزهر الشريف والإصلاح الاجتماعي والمجتمعي
- الأستاذ الإمام محمد عبده
- الإصلاح الجامعي : الجودة من أجل البقاء
- الأمن القومي لمصر : مذكرات قادة المخابرات و المباحث
- الانطباعات الذكية في كتابة تاريخنا الثقافي والفني
- الببليوجرافيا القومية للطب المصري
  - ج١ :أمراض و جراحة العظام
  - ج٢ : الجراحة العامة
  - ج٣ : أمراض القلب
  - ج٤ : طب الأطفال
  - ج٥ : العلوم الطبية الأساسية
  - ج٦ : الأذن والأنف والحنجرة
  - ج٧ : طب و جراحة العيون
  - ج٨ : الغدد الصماء
  - ج٩ : أمراض الأورام
  - ج١٠: أمراض النساء و التوليد
  - ج١١: الطب الطبيعي
  - ج١٢: الصحة العامة
  - ج١٣: الصحة المهنية

- البنيان الوزاري في مصر [إصداران]
- التاريخ يفشي أسراره : دراسات وآراء في السيادة والسياسة
- التشكيلات الوزارية في عهد الثورة *
- التشوهات الانقلابية الهيكلية : تحليلات موضوعية للثورة المضادة
- التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار
- الثورة و الإحباط : مذكرات أساتذة الأدب و الأدباء
- الثورة و الحرية : مذكرات المرأة المصرية
- الجامع الأزهر باعثا لشرارة النهضة العربية الموسوعية الحديثة
- الحكيم الجراح : سيرة حياة د محمد عبد اللطيف
- الحلول الجزيئة هي الأجدى أحيانا
- الدكتور سليمان باشا عزمي أول أطبائنا الباطنيين
- الدكتور علي باشا إبراهيم : يد من حرير ويد من حديد
- الدكتور علي باشا إبراهيم : رائد الطب المصري الحديث (كتاب للطلائع)
- الدكتور محمد كامل حسين عالما و مفكرا و أديبا [إصداران]
- الدكتور نجيب محفوظ رائد أمراض النساء والتوليد
- الديموقراطية المحسوبة : ائتلافات والتفافات
- الربيع العربي والخريف الأمريكي : دراسات تشريحية للتوازنات المستحدثة
- الزوايا الكاشفة في كتابة تاريخنا المعاصر
- السياسة الغائبة في ثورة حاضرة : متي تكتمل ثورة يناير؟
- الشمعة الامريكية في نهضة الشام الثقافية الحديثة
- الشيخ الظواهري و الإصلاح الأزهري
- الصحة و الطب و العلاج في مصر [إصداران]
- الطريق إلى النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية١٩٦٧
- العصف المأكول : حكومات أسرعت بثورة ٢٥ يناير
- العمل السري في ثورة ١٩١٩ مذكرات الشبان الوفديين
- الفلسطينيون ينتصرون أخيرا دراسة في التنبؤ السياسي
- القائد الشهيد عبد المنعم رياض *
- القاموس الطبي نوبل، ٣ أجزاء (بالاشتراك مع أد محمد عبد اللطيف)
- القاهرة تبحث عن مستقبلها
- المسلمون والأمريكان في عصر جديد
- المشير أحمد إسماعيل : من الميلاد إلى النصر (كتاب للطلائع)
- النجوم المتعاقبة في كتابة تاريخ مصر المعاصر

- النخبة المصرية الحاكمة (١٩٥٢-٢٠٠٠)
- النصر الوحيد: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣
- النوافذ المتلونة في كتابة التاريخ المصري المعاصر
- الهباء المنثور السلطة والنخبة عقب ثورة يناير
- الوزراء و رؤساؤهم و نواب رؤسائهم و نوابهم [إصداران]
- الوظائف الانبساطية للقلب
- أمراض القلب الخلقية : الثقوب و التحويلات
- أمراض القلب الخلقية الصمامية
- أمراض القلب في المسنين
- أهل الثقة و أهل الخبرة : مذكرات وزراء الثورة
- أوراق القلب: رسائل وجدانية
- أوهام الحب : دراسة في عواطف الأنثى
- باريس الحيوية : الخيال صنع الحضارة
- باريس الرائعة : الزهور والنور والعطور
- باريس الفاتنة : أصداء باريسية في أدبنا المعاصر
- بحران لا يلتقيان :السياسة والقانون بعد الثورة
- بناء الجامعات و الأكاديميات : مذكرات رواد العلوم و الفنون
- تاريخ مجمع الخالدين: لغة عربية وتقاليد فرنسية
- تحت الأرض و فوق الأرض : غربة اليسار المصري
- تسعة عشر أستاذا و صديقا ، تراجم ١٩من أعلام مصر
- تكوين العقل العربي : مذكرات المفكرين و التربويين
- توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية
- ثلاثية التاريخ و الأدب و السياسة : من بين سطور حياتنا الأدبية
- ثلاثية السياسة والصناعة والفن ،مذكرات أساتذة الهندسة
- جمال سالم : نشوة السلطة
- حتى لا تتكرر الحروب الصليبية : رؤية استشرافية لإرهاصات متنامية
- حوارات الدين والطب والسياسة
- حياتي في المانيا
- دليل الخبرات الطبية المصرية و تاريخ التعليم الطبي في مصر
- دهاليز الناصرية
- رؤساء المجامع اللغوية العربية
- رحلات شاب مسلم

- رحلات في بلاد العرب
- زعيم الأمة : مصطفى النحاس باشا و بناء الدولة الليبرالية
- زكريا محيي الدين : بلاغة الصمت
- سماء العسكرية المصرية : الشهيد عبد المنعم رياض*
- سيد مرعي : شريك و شاهد على عصور الليبرالية و الثورة والانفتاح
- سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكي
- سيرة حياة علىّ مصطفى مشرفة *
- شمس الأصيل في أمريكا
- شهيد النزاهة الثورية : عبد اللطيف البغدادي
- صانع النصر : المشير أحمد إسماعيل *
- عاشق العلم : أحمد مستجير
- عثمان محرم مهندس الحقبة الليبرالية المصرية
- عسكرة الحياة المدنية : مذكرات الضباط في غير الحرب
- عقبات التنمية العربية : دراسة حالة وحادة
- علي ماهر باشا و نهاية عصر الليبرالية
- على مشارف الثورة :مذكرات وزراء نهاية عهد الملكية
- على هوامش الأدب
- فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة و المحترفين
- في أعقاب النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧-١٩٧٢
- في حدائق الجامعة : مذكرات خريجي جامعة القاهرة في عقدها الأول
- في خدمة السلطة : مذكرات الصحفيين
- في رحاب العدالة : مذكرات المحامين في عصور مصر الحديثة
- في ضوء القمر : مذكرات قادة العمل السري و الاغتيالات
- في ظلال السياسة نجيب محفوظ
- في كواليس الملكية : مذكرات رجال الحاشية
- قادة الشرطة في السياسة المصرية
- كلمات القرآن التي لا نستعملها
- كيف أصبحوا عظماء : دراسات و رثاءات
- كيف أصبحوا وزراء : دراسة في صناعة القرار السياسي
- كيف رأت ٢٣ يوليو صورتها في المرآة
- كيمياء الثورة المضادة : تحليلات نسيجية للبنية الاجتماعية
- مايسترو العبور: المشير أحمد إسماعيل

- مجلة الثقافة (١٩٣٩-١٩٥٢) : تعريف و فهرسة و توثيق
- محاكمة ثورة يوليو : مذكرات رجال القانون و القضاء
- محمد الخضر حسين و فِقه السياسة في الإسلام
- محمد طاهر الدباغ : أستاذ الجيل في السعودية
- محمد محمود باشا وبناء دولة الأقلية
- مذكرات الضباط الأحرار*
- مذكرات المرأة المصرية*
- مذكرات وزراء الثورة*
- مستقبل الجامعة المصرية
- مستقبلنا في مصر : دراسات في الإعلام و البيئة و التنمية*
- مشرفة : سيرة حياة *
- مشرفة بين الذرة و الذروة *
- مصريون معاصرون
- مصطفى مشرفة (كتاب للطلائع)
- من أجل السلام : مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية
- من بين سطور حياتنا الأدبية *
- نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار
- هل انتهى عصر الثقافة الوطنية ؟
- وشائج الفكر و السلطة : تأملات في الإنسان و الدور
- يرحمهم الله : كلمات في التأبين*
- يساريون في عصر اليمين : مذكرات قادة الفكر اليساري المصري
- يوميات علي مصطفى مشرفة

- النجمة * إلى اليسار من اسم الكتاب تشير إلى كتبٍ اختلفت إصداراتها واسماؤها.
- بعض الكتب المشار إليها في القائمة طبعت في إصدارين مختلفين تماما و زمنيا مع الحفاظ على اسم واحد.
- القائمة لا تشير إلي الطبعات المتعددة من الكتب ما دامت تحمل الاسم نفسه.

تم بحمد الله

يؤمن هذا الكتاب بأن الأمريكيين أرادوا التأثير في الثقافة العربية في بلاد الشام تأثيرا مباشرا لكنهم قدموا رجلا وأخروا الثانية فكانت النتيجة أن وجودهم لم يتعد الومضة العابرة التي تترك بصمتها على هذه الثقافة بما يتناسب مع الوجود السياسي الأمريكي الفاعل منذ ذلك الحين ، وفيما يبدو بكل وضوح فإن عوامل الثقافة الأصيلة والذاتية كانت مشتعلة الأوار في بلاد الشام جميعا ومنها بيروت التي استهدفتها الجهود الأمريكية التبشيرية من دون أن تجد لنشاطها صدى يمكن أن يفرض نفسه على نحو يحتفظ بالأصالة الأمريكية إن صح أن هناك أصالة أمريكية في ثقافة القرن التاسع عشر

دار الروضة
للطباعة والنشر والتوزيع
9 786257 895798